

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

عدد السادس - السنة الثانية - العدد الخامس - 2013

- ونحن نقسم صرح الروح - فتح الله كوكس
- غياب الهوية - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- طاقة الإسلام الاحتوائية للأحرار - أ.د. محمد عمارة
- السماء والحفظ الإلهي - أ.د. زغللول النجار
- مفهوم العولمة في رسائل النور - أ.د. عبد العزيز برغوث
- وباسمك أفتح الملكوت - أ.د. حسن الأمراي

المحتويات

وَلَمَّا نَقِيصُ صِرَاحَ الرُّوحِ / فَتَحَ اللهُ كَوْنَهُ.....	٢
مَقَاصِدُ التَّوْبَةِ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ / أ.د. حَالِدُ الصَّمْدِي.....	٧
أَذْوَاقُ وَأَشْوَاقُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ / أ.د. مُحَمَّدُ عَبْدِ السَّامِيِّ.....	١١
لَيْسَتْ الْمَشْكَلَةُ غِيَابُ الْحَدَاثَةِ إِنَّمَا الْمَشْكَلَةُ غِيَابُ الْهَوِيَّةِ / أ.د. مُحَمَّدُ سَعِيدُ رَمَضَانَ الْبُوطِي.....	١٥
طَاقَةُ الْإِسْلَامِ الْاِحْتَوَائِيَّةِ لِأَخَرٍ / أ.د. مُحَمَّدُ عِمَارَةَ.....	١٨
السَّمَاءُ وَالْحَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةُ / زَعْلُولُ النُّجَارِ.....	٢٣
وَبِاسْمِكَ أَفْتَحُ الْمَلَكُوتَ / أ.د. حَسَنُ الْأَمْرَانِ.....	٢٦
أَنَا عَيْنُ عَبْدِ اللهِ / أ.د. عُرْفَانُ بِلْمَارِ.....	٢٧
وَأَيْنَاهُ... لَكِنَّ أَنْتَ الْفَدَاءُ / نُورُ الدِّينِ صَوَائِي.....	٣١
الْاِفْتِرَابُ الْخَضَارِيُّ لَدَى الْمُسْلِمِ الْمُعَاوَرِ / أَدِيبُ إِبرَاهِيمَ الدَّبَائِغِ.....	٣٣
جَهَالِيَّةُ الْفِكْرِ الْإِيمَانِيِّ / أ.د. فَرِيدُ الْأَنْصَارِيِّ.....	٣٧
مَفْهُومُ الْعَوَلَةِ وَتَحْلِيلُهَا فِي ضَوْءِ الْفَلَسَفَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ لِرَسَائِلِ النُّورِ / أ.د. عَبْدِ الْعَزِيزِ بَرْغَوْتِ.....	٤٠
شَيْخُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ: مُحَمَّدُ زَاهِدُ الْكُوْنُزِيِّ / أ.د. عِمَارُ حَيْدَلِ.....	٤٥
إِدَاعَاتُ الْفَنَاءِ الْمُسْلِمِ فِي الْأَشْكَالِ الزُّخْرُفِيَّةِ / أ.د. بَرَكَاتُ مُحَمَّدِ مَرَادِ.....	٤٩
هُوَ الْخَاضِرُ... / نَجِيبُ فَاضِلِ.....	٥٣
عِمَالِقَةُ الْمَنَاطِقَةِ: الْكَائِنَاتُ الْمَجْهَرِيَّةُ / د. وَلِيٌّ قَارَاوَعَا.....	٥٤
خَصَائِفُ السَّرْدِ الْقَصَصِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ / أ.د. مُحَمَّدُ مَشْرِفُ يَوْسُفِ حَضَرِ.....	٥٧
كَيْفَ تَنْهَارُ الدُّوَلُ؟ / أُوْرَحَانُ مُحَمَّدُ عَلِي.....	٦١
بَيْنَ الْمَشَاعِرِ وَالشَّعَائِرِ... سَلَامُ الْإِيمَانِ / د. حَبِيبُ بُوْدِينَارِ.....	٦٢



ونحن نقيم صرح الروح



إن الكفر نظام متعلق وخالق. ففي نظر الكافر: بدأ الوجود بقوضى، وتطور في المراحل المخيفة للصدف، وينزل منسارعاً إلى نهاية رهيبية. وفي هذا المسير المتدرج والمنزلق، ليس لنا مكان ضيق بل ولا موطئ قدم فيه نفحة رحمانية بنشرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أما إنسان الإيمان المستشعر بمنشئه وخط حركته، ونوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته... فإنه يرى كل شيء نوراً وضياء، وبطأ قدمه من غير قلق أينما بطأ، ويسير نحو هدفه بلا خوف وفي ثقة. وإذا يسير، يُقَبَّحُ خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشّح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الإنبيق، ويصر على طرُق كل باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء... وحين يقصر ما علمه وما وجدته، يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً^(١) وتريد الآن أن نوضح فيها بشيء من التفصيل:



الإيمان الكامل

الوصف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. فالقرآن العظيم يضع "الإيمان" هدفاً لخلق الإنسان؛ ذلك الإيمان المشتمل على الأفق العرفاني وروح الخفية ويُعَدِّي العشق والشوق والألوان لانهائية من الأدواق الروحية. والإنسان مكلف ببناء عالمه الإيماني والفكري بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود حياءً، وبالتقاط شرائع من الوجود وتقييمها في ذاته حياءً آخر. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء... إلّا في ضياء الإيمان. وبعد الاطلاع يحيط بهما بالوجود في أبعاده الذاتية.



وموقعه في الكون، وغاية وجوده، والصراف الذي يسير فيه، ونهاية هذا الصراف في هذين المصدرين، منسجم انسجاماً عينيّاً مع فكر الإنسان وحسه وشعوره وتوقعاته، فلا تملك دونه -إذ نُسج هذا الانسجام- إلا الإعجاب والاندحاش. هاتان المحبّتان البَيّضوان، هما لأرباب القلوب مع العتق والشوق ومَنَمَّ الجذب والانجذاب. فلن يعود خاليّاً من براجمهما صفوة الحس وحافز الاحتياج، ولن يموت أسداً من بلحاً إليهما. والمفيد أن يلحاً للآخرين نعيم وإحلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السرهندي والنشأه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسي، وأن يقتربوا بحماس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بالكم وحركة خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وصلاح الدين ومحمد الفاتح وسليم... نعم، وخطوتنا التالية هي أن نخرج عتقهم وشوقهم العجيب -غير المفيد بالأزمة والأمكنة كلها- بأساليب عصرنا ومناهجه ووسائله، في بيدل واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحدّه زمان ولا بلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كريمة.

العلم وثلاثية العقل والمنطق والشعور

الوصف الثالث للوارث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. وهذا الإقبال يأتي في أوانه إذ يشكل استجابة لمطلب بشري عام في وقت انخرقت فيه البشرية وراء فرضيات غامضة مظلمة وإها لخطوة خطيرة نحو خلاص الإنسانية عامة. ولقد أشار بديع الزمان التورّسي إلى أن البشرية ستوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن؛ فستستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعاً في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.⁽³⁾ ولا نرى سبيلاً غير هذا، يعيدنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيتنا، ويرسلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. إن استدرأنا لنواقص والفجوات التي أملت بنا في القرون الأخيرة، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمّن في شعورنا الباطن... كل ذلك يتطلب منا إررار العلم من منشور الفكر الإسلامي، ومثيله عملياً والإفادة عنه بشتي الوسائل. وقد شهدنا في تاريخنا القريب خلافاً ملموساً في الفكر العلمي وتزوّلاً في توفير رجال العلم يصعب تعميره، بسبب تشتت

في إطار هذه الموازين، يُعدّ سانح الإيمان مكتشفاً لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعاً يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يجوز على هذا المصدر للقوة، وهذا النور. فإنه لا يرى إلا "هو" سبحانه، ولا يعرف إلا "هو"، ولا يفر إلا إليه "هو"، ولا ينجي إلا متوجهاً إليه "هو"؛ فيستطيع تحدي كل القوى الدنيوية بقدر عمق معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشدّ المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء. وأكثفي هنا بهذا المصدر عن هذا الموضوع مُحيلاً إلى تراث ضخّم من الآثار تعالجها، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

العشق والبعث من جديد

الوصف الثاني للوارث هو العتق الذي يُعدّ أهم إكسير للحياة في الانسعات من جديد. إن من يُعَمَّر ويَجْهَر قلبه بالإيمان بالله ومعرفته، يحس حسب درجته محبة عميقة وعتق أصيل لكل البشر، في لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعتق والواحد والجدّيات والانجذابات والأدواق الروحية التي تختص الوجود كله جمعاً. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب عشقاً، وأن تعما شوقاً، في فهم جديد وطريّ، لتحقيق انبعاث عظيم؛ فما من حركة أو حملة تشر وتقي معزل عن العتق... وحصراً إن كانت الحركة أو الحملة ذات امتدادات إلى العقي وأبعاد ما وراءها. إن العتق الإلهي الذي يمكن أن نعرّفه في إطار تعيين موقعنا من الله سبحانه بصفته الخالق المتعالي وصفته العبد العاقر الضعيف، واستشعار بشوة الخلق باعتباره وجوداً ظلّاً لضيء وجوده "هو"؛ والإيمان بأن نيل مرضاته غاية الخلق ومقصده، والسعي لتصديده بلا تأن أو وهن؛ هو مصدر للقوة مكمّل بالسر، وسرمد لا يضب. ولا يسعي أن يُهمل ورثة الأرض هذا المصدر، بل ينبغي أن يَحْيُو حَيَاةً وفوراً.

لقد تعرف العرب على العتق في أبعاده المادية على يد الفلاسفة وفي أجواء الفلسفة الضائية التي يكتشفها العوض؛ فذاق طعمه وعاش الشهوات والتذوّبات على طول الطريق. أما نحن فننظر إلى الوجود، ومصدر الوجود، بعدسة الكتاب والسنة، ونحقق حبّ الخالق الذي تُذكّي جذوته وغيبه في قلوبنا، وحبّ المحلوقات من أجل الخالق سبحانه، باللحوق إلى الموازين الدقيقة لهذين المصدرين مع الانفتاح على أبعادهما الماورائية الفلسفية. ذلك لأن منشأ الإنسان،



لسيرتنا المتحوس، واضطراب القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا بسبب استغلال الغير لنا قروننا، أورثنا اليوم شهقة كشهقة التي آدم، ونشيجاً كششج التي يونس، وأتينا كأتين أيوب عليهم السلام. وقد بلغ بنا الأمر أننا بدافع هذه الأفكار والمشاعر وعلى ضوء التجارب التاريخية نشعر اليوم وكأن المسافات قد اتكمتت ولم يبق للوصول إلى الهدف سوى خطوات.

قراءة الكون والإنسان والحياة

الوصف الرابع للوارث هو إعادة النظر في قرانه للكون والإنسان والحياة، وبالتالي مراجعة تصوراتنا الصحيحة منها وإحاطة. ونذكر بما بقي في هذا الشأن:

١- إن الكون كتاب فتحه الله تعالى أمام العيون ليراجع باستمرار، والإنسان منشور بلوري مؤهل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شفاف للعالمين جميعاً.. والحياة ترشع هذا الكتاب وهذا الفهرست، وتَمَثَّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي.. وما دام الكون والإنسان والحياة باعتبار تلوئناها أوجهها متنوعة حقيقة واحدة فإن تفريقها عن بعضها ونقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال باتسجام الخبيفة. وكما أن قراءة بيان الله سبحانه النابع من صفة الكلام الجليطة، وفهمه، وإطاعته، والانقياد له واجب؛ فكذلك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشياء والحوادث جميعاً، التي صورها سبحانه بعلمه وأوجدتها بقدرته ومشيبته تعالى، ثم رؤية طرق التوافق بينهما، أساس لا يمكن التحلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامه هو، وهو روح الوجود كله والمصدر الأوحده لسعادة الدنيا والعقي. وإن كتاب الكائنات هو جسد تلك الحقيقة، وحركة مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشرة، وفي حياة العقي بالوسيلة، باعتبار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة وأحوالها عليها. فالله ﷻ يكافي من يدرك كلا الكائنين ويحَوِّلُ ذلك الإدراك إلى واقع عملي، ثم ينسج حياته كلها على هذا المثال؛ بينما يعاقب من يهملها ويتغاضى عنها بل ولا يفسرها تفسيراً صحيحاً ولا يحولها إلى واقع.

٢- إن قيمة الإنسان الحقيقية وثيقة الصلة بعمق عواقله ورتقي فكره وتكامل شخصيته. وإن هذه الأوصاف دوراً كبيراً

التوجهات والأهداف حيناً، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حيناً آخر. واستفاد الأجناب المقيمون في بلادنا من هذا الفراغ فائدة همة، فافتتحو المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن، ولحقوا أجيالنا باللقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتكئين خير أبناء الوطن استعداداً وقابلية، من شغل مقاعد الدراسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الدين وضاع الإيمان، فالدين خسران والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغيرة المخدوعة. ضاع، فوقتنا كأمة في انبدال الذات فكراً وتصوراً وفقاً وحياة. وهل تعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلّمناها الأدعغة الطرية بلا توجّس أو قلق، تضع في اعتبارها من غير استثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنسية والعادات والأعراف الإنكليزية، على العلم والتفكير العلمي. ولذلك، بدأ شبابنا يتسلّى بألعاب الماركسية والدور كهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنياتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهم من ضيّع عقله في الوجودية مشدوداً إلى سارتر، ومنهم من أسأل ماركوس رضاه، ومنهم من أهدر عمره لاهناً خلف هذيان كامو...

لقد عشنا هذا كله، وتولى ما يسمى بموائل العلم دُور الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأرمه هذه، لم نر أصوات القنّام وأفواه السواد من تطبيع اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلة ودماها الرخيصة. إن من هبوا تلك الأرضية ضد إرادة إنساننا ووطننا، سيذكرون دائماً في وجدان المجتمع على أنهم يجرمون تاريخياً.

والآن، نريد أن ندع مهندسي تلك الأيام السوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم آلام في أنفسنا وآتين في قلوبنا، وتحدث عن عمال الفكر الذين يكدّون لبناء مستقبلنا.

أجل، لا بد من تحقيق تجدّدنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقّيح عقول شبابنا بالتفكير العلمي، وذلك سيؤدّي إلى تفاعلهم واتدماجهم مع الفكر والعلم، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس به في الوجدان العام





أنفاهم أنواعاً وألواناً على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخففنا... فدع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للفرادة والتفكير والإحساس والحياة، وأسأل إن كان في قدرة الإنسان البقاء بملكاته ومواهبه الإنسانية في هذا الوسط. فإنّ حماية المستوى الإنساني البسيط في هذه الأرضية عسرة، فكيف بإفضاع بشر يسمفون إلى العلّى بروح التجديد وبمذّون البصر إلى اللأغايا؟! فلا تنتظر في هذا الوسط إلا أناساً ضعاف الشخصية وأرواحاً هزيلة ضاوية ومناعرة مشلولة. وتعرف من تاريخنا القريب أنّ الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذّة والموازين الفاسدة، فقلبت رأساً على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء. في هذه المرحلة المذكورة، كنّا نبدى اغترافاً إذ تفكر، ونخطّط لكل شيء على محور الأناية، ولا نحسب حساباً لوجود معتقدات وقناعات أخرى غير معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرصة. وإذ نلجأ إلى القوة، نخلق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجتم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعد، ولا تجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي - إذ غمضي في طريق التجديد أمّة - أن نعيد النظر في الحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستحوج "الشعيرات" و"التحويلات" المختلفة لمائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تتوّكب في الحاضر حسب مقدسات (١) مضطبعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بدبّهة عن الإعداد للمرحلة المشرقة المأمولة. ولئن أعدت لنبيء، فإنها تُعدّ للضمار بين الخشود المنحشرة في شبكات غرائز الخرص القتالة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام

في تعيين مكانة الإنسان لدى الحق تعالى والخلق أجمعين. فإنّ الحصول الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامة الشخصية ببطاقة اعتماد مطلوبة دائماً وفي كل مكان. ومن يكثر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرة، ويتر القلق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهرًا لتحلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له ونفثهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافؤونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن نتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يتصور أن يفسل فشلاً ذريعاً أناس يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنتظر إلى الحصول والصفات، وكذلك حسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى اطرد المشروع والحق، سريعة وحفاً. إن الساترين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروع الحق في آمهم وغاياتهم كلها. والنزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضاً واجب عليهم؛ فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مرابه الحقيقية بوسائل شيطانية ألبسة. ولعلنا نرى حبناً إمكانية ذلك، لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمداً بعيداً بعيداً.

حرية التفكير

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حرّاً في التفكير وموقراً لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمق مهم لإرادة الإنسان وباب سحري يفتح على أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بـ"الإنسان" من لم يتطلسق في ذاك العمق ولم بلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نلتوي أكماً في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا

التفكير الرياضي

الوصف السايك للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، تحضنتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيراً من المجاهيل والمغلفات بعالم الرياضيات المقمعة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحرقية جانباً، فإنه لولا الرياضيات لما توضحنا المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي - كمصدر نور - تُضيء طريقنا في الخط الممتد من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماق عالم الإمكان الذي يعسر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا.

لكن العلم بالأنبياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالم بها رياضي. الرياضي يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكرياً، ويصاحبها دائماً في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائماً من الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرقى الغرب نفسه ملء فراغ جوهر لم يعرفه أساماً، فحاول سد الحاجة نسبياً بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أما نحن، فلست بحاجة إلى التفتيش عن شيء أعجبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمقيد أن تحيط فهماً بهذا المصدر والروح كما هو في تراثه الأول... فنشهد عندئذ شيئاً من المناسبات الخفية في الوجود والحركات المسجحة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوق مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافاً في الكلام، لكنني أفتي بدوي أصدائه في المستقبل، أريد أن أنسوه إلى الوصف الثامن وهو رؤيتنا الفنية. لكنني بناء على ملاحظات معينة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانغراط في هذه المسيرة بمقاييسنا". ■

(٩) الترجمة عن التركية: عوفي عمر لطفي أوغلو.

المواهب

(١٠) انظر كتاب: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل، ص ١٤.

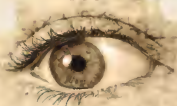
(١١) انظر: الكلمات ليدع الزمان سعيد التوحي، ص ٢٩٢.

بين القوات. وإنما اليوم هي سبب تضارب شريحة مع أخرى، وتحوّل التنوع إلى تضخم، وحتى الوحشية المشهودة في الأرض! فرمما كان العالم يختلف عما عليه الآن اختلافاً بعيداً، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين لرغبات ومساة إلى هذه الدرجة. علينا إذن أن نكون أقسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية ونمسينا برغباتنا. فالخاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتفتح على العلم والبحث العلمي وتستنشر النواقيع بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعة تتحمل دوراً لا يمكن أن يحمله إلا أولو العزم من العبارة. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تمثل من قبل عباقرة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في التفريعات توسعاً يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء، فحلت الشخصية المعنوية والنشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو خلاصة الخطوة السادسة لورثة الأرض.

والحقيقة أنه لم يمكن غرس هذا الفهم في المجتمع الإسلامي في تاريخنا القريب؛ ذلك لأن التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلّماته الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلّت على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكية (الزاوية) دفنت نفسها في الوجدانيات تماماً، والتكسبة أظهرت القوة وحدها وزجرت بالقوة وحدها. فكيف يمكن نشر هذا الفهم في المجتمع، وهل يتوقع أن تكون هذه المبادئ جزءاً من الحياة؟!

في تلك المرحلة، هيمنت الفلسفة المدرسية (Scholastic) على التعليم التقليدي ولم يتنفس إلا هواها، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لعلل أربابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسُتت التكية والزاوية نفسها بقراءة المتأنيب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت في مملي القوة عقدة إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنهم أنهم قد أهملوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأساً على عقب، وانقلبت شجرة الأمانة لتهوي على الأرض... ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن حتى يأتي يوم يتهاى فيه السعداء الذين يمهّد القدر دروهم لاستخدام هذه الحركات استخداماً أفضل، ولتنفيس الاختناقات بين القلب والعقل وفتح عمرات الإلهام والتفكير في أعماق الإنسان النفسية.

من قطرات الماء تتكون البحار. ولكن كم من الوقت تحتاج هذه القطرات لتصنع بحراً؟ فمن العجاجة أن تتعجل القطرات كي تقتصر الزمن، لأن سنن الكون لا تغير عاداتها من أجل سواد عيوننا!



مقاصد التربية في الفكر الإسلامي وقدرتها على التكيف مع حاجات المجتمع



د. أحمد، خالد الصمدي

بلغني من ذهنة العينية والصدفة، ويربيه على رسم الأغراض الذاتية الواضحة في سياق الغايات المتوافق عليها في المجتمع المسلم، في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهًا لَا تَرْجِعُونَ﴾ (الزبور: ١١٥).

وفي هذا السياق العام نقرأ دعاء إبراهيم عليه السلام لأمنه حين قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩). فكانت المقاصد الكبرى لإعراج الأمة للناس ملخصة في ثلاث: المعرفة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، والأولى أعم من الثانية، لأن الآيات تشمل كتاب الله المنظور والمستطور بما بضمان من سائر العلوم.

إن الناظر في كتاب الله الحكيم وسنة نبيه الكريم لا يكاد يحيد نظره عن البعد المركزي للمقاصد والغايات، فهي جلبة وظاهرة في كل المواقف والأحوال والأفعال. قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَتْلُوَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الملك: ٣). وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الدريات: ٥٦). وقال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". (رواه الإمام أحمد).

مقاصد التربية والتكوين في التصور الإسلامي
إن هذا الأسلوب في بناء الفكر المنهجي والمقاصدي لدى الإنسان

الحكمة: وهي كل مهارات النواصل والخطاب والصرف التي تمكن الفرد والجماعة من إقناع الناس بالحق وللحق، وإذا كان الله تعالى يعطي المعرفة لمن يحب نعمة ولمن لا يحب امتحانا ونفسه، فإن الحكمة لا يؤتيها إلا لصفوة ممن يشاء من خلقه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

التزكية: وهي تمازج الإيمان بالوجودان، بدّل على ذلك تمسك الفرد بمنظومة القيم الأخلاقية الفردية والجماعية في أرمي مسنوبها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (التيس: ٩-١٠).

وتجد الربط بين طلب المعرفة، ومهارة القراءة والكتابة، والتربية الإيمانية، في أول آية نزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (علق: ١-٥)، فالقراءة والربّ والقلم الواردة في الآية واضحة في الدلالة على المراد.

ومن منهج القرآن والسنة المزج بين هذه المقاصد الثلاثة في كل الأحوال التي يتحدث فيها عن الإنسان فصلاً ووصلاً؛ فالفاصل بينها شقي والواصل سعيد، وهما صورتان بارزتان في القرآن الكريم، أولاهما صورة قارون الذي اغترى بعلمه حين انفصل عن القيم ففال مزهوا بعد التمكن المعرفي الذي أكسبه أموالا ما إن مفاغحها لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (النصر: ٧٨)، قال تعالى: ﴿فَنَحْسَبَنَّاهُ وَبَدَّارُهُ الْأَرْضَ قَدْ كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَتَصَوَّرُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَبِّهِينَ﴾ (النصر: ٨١). وقال الذين اغترؤا بمظهره ومكانته قبل قليل ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (النصر: ٧٩). ولكنهم قالوا بعد الحسف: ﴿كُلُّوْا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَاذُ لَآ يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (النصر: ٨٢). لأن العلم في هذه الحال ما زاد قارون إلا علوا واستكبارا، إذ هو في هذه الحال علم مدمر، ألا نرى أتباع قارون في عصرنا وقد صنعوا أسلحة الدمار الشامل ونحوها أقواما من البسيطة، ولعبوا بالجنيات في غياب الأخلاق؛ فخلطوا الأنساب واستغلوا الصناعات الفضائية للجاسوسية

وقهر الشعوب، فكشفوا بذلك عن الوجه البشع للعلم حين يتفصل عن القيم.

وصورة ذي القرنين الذي فتح في بناء سد من زبر الحديد وقطر النحاس، وجعله حاللا بين إفساد بأجوج ومأجوج والقوم الصالحين من الموحدين ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف: ٩٧)، وحين عجب الناس من صنعيه وعلمه قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٨). فربط المعرفة بقيم التوحيد وإجلال العالم الجليل، فكان صنعيه حاللا بين الحق والباطل إلى أن يشاء الله.

وفي ضوء هذين النموذجين المذكورين في القرآن الكريم، وعلى واضعي المناهج التعليمية في البلدان الإسلامية أن يحدّدوا غاياتهم من أنظمة التعليم، فإن اختاروا النموذج الأول، فإن المآل لن يكون إلا الخسف بمفهومه الحضاري الواسع، وإن اختاروا النموذج الثاني كان علمهم رحمة بالبشرية وإنقاذا لها.

مقاصد التربية في الفكر الإسلامي

تكاد يجزم أن علماء التربية المسلمين استوعبوا المقاصد التربوية النظرية النابعة من أصول التربية الإسلامية كما حددها في الفقرات السابقة، وصاغوا غاياتهم التربوية في ضوءها، إلا أن البارز من تحليل كتاباتهم التربوية هو قدرهم على تكيف غايات التربية مع متطلبات الزمان والمكان؛ فابن سحنون في الفريوان، هو غير ابن عبد البر وابن حزم والقاضي عياض في الأندلس والمغرب، وهؤلاء غير الإمام الغزالي في المشرق، وإن كان الجميع ينهل من حوض واحد. والمستفاد من هذا النهاج هو إقرار الجميع بضرورة تكيف المناهج التعليمية مع متطلبات العصر ومتغيراته وحاجاته.

وتعكس النماذج التالية هذا التنوع المحكوم بالخلفية الفكرية لكل عالم ومتغيرات عصره السياسية والاجتماعية. فالعلم عند أبي عمر يوسف بن عبد البر (الفقيه المحدث المالكي القرطبي المولود سنة ٣٦٨ هـ والذي عاصر زمن الطوائف الأول بعد سقوط الخلافة وقبل عصر المرابطين) يهدف إلى إرضاء الله وحشيشته وحسن العلاقة به في العبادة وتكوين علاقة طيبة بعباده، كما يهدف إلى نفع المسلمين في دنياهم عقليا ووجدانيا وماديا. فالرجل ركز على الإخلاص وتبذ حفظ النفس لما عاينته من خلافات ذاتية عصفت بمحصر الخلافة الإسلامية بالأندلس، ولا سبيل لإعادة العزة

للمسلمين إلا هذا المسلك الذي ينبغي أن ترتب عليه الأجيال.

وحدد بدر الدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ) الفقيه الشافعي الشامي الذي عاصر فترة أهوال سقوط بغداد في يد المغول والصراع مع الصليبيين، المقاصد العامة لطلب العلم في: ١- فهم الدين ومعرفة أصوله وأحكامه وقواعده. ٢- حمل العلم عن السلف. ٣- الدفاع عن الدين وعلموه الصحيحة ضد التحريف والانتحال والتأويل.

ولا شك أن حملات التشكيك التي بثها الصليبيون والفرق المنحرفة عن الإسلام وتاريخه وحضارته وثقافته اقتضت أن يركز الرجل في المقاصد الكبرى للتعليم على تحديد فهم الدين وفق رؤية سلفية متأصلة والدفاع عن الدين الذي هُددت حياضه ونداعت عليه الأمم.

وقد جعل ابن سينا (ت: ٤٢٧هـ) مقصد التربية والتعليم تنمية القوة المدركة، ولقت النظر إلى أهمية الحكمة فقسّمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط بأخلاق المرء وأعماله حتى تكون حياته الأولى والأخرى سعيدة.

القسم الثاني: يرتبط بتدبير المرء لمنزله المشترك بينه وبين زوجته وولده وملوكه حتى تكون حاله مؤدية إلى كسب السعادة.

والقسم الثالث: أصناف السياسات والراثسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة، فيعرف وجه استيفاء كل واحد منها وعلة زواله.

قال الدكتور هشام نشابة، محقق كتاب السياسة لابن سينا "وهذه النوجهات تصلح أن تكون أساساً لوضع منهاج دراسي لمختلف مراحل التعليم".

والأثر الفلسفي في رؤية الرجل لمقاصد التربية والتعليم تابعة من اطلاعه على مقومات تكوين الإنسان في الفلسفة اليونانية بوجه خاص، والسعي إلى تكيف هذه الرؤية مع التصور الإسلامي، مما يجعل الإنسان قادراً على تدير شؤون الحياة الفردية والجماعية مع الحرص على كسب السعادة في الدارين.

ومن قراءته المعقنة في الفكر التربوي عند ابن خلدون (عالم الاجتماع والعمران المولود سنة ٧٣٢ هـ - "نونس"، والذي جاب أقطار المغرب والأندلس زمن بني الأحمر، واحتل بنصاري قشتالة، وعاصر ضعف المسلمين وصراعاتهم بالأندلس) يستنتج الدكتور عبد

الأمر ثمس الدين أن المقاصد التربوية عند الرجل تتمثل في: ١- تربية الملكات، ٢- اكتساب الصناعة، ٣- البناء الفكري السليم. وهي المقومات الكبرى للعمران، وهي نظرة بعيدة تلخص علاج مشكلات الانحطاط في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، والتي تحتاج إلى فهم السنن الكونية في قيام الحضارات وسقوطها، وهي رؤية بقصد ابن خلدون إلى ترسيخها لدى الأجيال الصاعدة، لأن تغيير مصر ومسار الأمم يبدأ بتغيير التصورات وتنمية المهارات والقدرات.

وبذلك يظهر جلياً أن هذه الآراء التربوية التي أنتجها الفقيه والمحدث والفيلسوف وعالم الاجتماع في ظروف مختلفة لم تخرج عن المقاصد الكبرى للتربية في الإسلام، لكنها أصبحت أكثر إجرائية حينما حكمتها الخلفية الفكرية لكل عالم، والبيئة المعرفية والسياسية التي حكمت عصره، ورؤيته لسبل التصحيح والتغيير التي سنقوم بها الأجيال بعده، وهي الفكرة المركزية التي يمكن استنتاجها والاستفادة منها لتكيف مقاصدنا التربوية المعاصرة مع متطلبات واقعنا ومغفرائه وحاجاته.

إننا نتخذ أن ببناء مناهج التعليم وكذلك العمليات القرعية المرتبطة بها في أي بلد حسّس خياراته الدينية والمذهبية باعتماد المرجعية الإسلامية النصية، والاجتهاد المقاصدي، واستلهاهم التجارب الإنسانية التي لا تعارض مع ذلك، ينبغي أن تبني مناهجه التعليمية وفق أسس أربعة:

١- الأساس الفلسفي: ويتبين على الخصوصيات العقائدية للأمة ونظرها إلى الكون والحياة والمصير باعتبارها محددات رئيسة لتكوين رؤية الإنسان لحيات ووجوده وحياته ومصيره.

٢- الأساس الاجتماعي: ويرتكز من جهة على الإمكانيات المتاحة في كل مجتمع لتنفيذ نظام متجدد للتربية والتكوين، ومن جهة ثانية حاجاته التنموية على المدى القصير والمتوسط.

٣- الأساس النفسي: ويرتكز على ضرورة مراعاة النمو النفسي والإدراكي للمتعلمين في مختلف الأعمار، ومسيرة تطوره لتوسيع دائرة التفاعل مع برامج ومناهج التعليم في انسجام وتناغم، مما يبتغ دافعية أكبر نحو التعلم.

٤- الأساس المعرفي: فبراعي طبيعة المفاهيم التي تقدم للنلاميذ، وكيفية إسهامهم في بنائها في شكل خرائط معرفية متسلسلة



بأسلوب منهجي لا يقتصر فيه دور المعلم على التلقّي، بقدر ما يشارك في بناء المعرفة وفق نسق يمكنه من الأدوات المعرفية الضرورية للتنمية، ويؤهّله لإدراك المقاصد الكبرى للعلم للوصلة إلى معرفة الخالق وتقديره حق قدره.

وحين نتحدث عن النظام التربوي والتعليمي بهذه الصيغة المركبة فإننا نرسخ بذلك مبدئين أساسيين:

١- أنه لا فصل بين التربية والتعليم، وإن كان هذا الفصل موجوداً في الواقع اليومي للمدرسي الذي أصبح الشأن التعليمي يهيمن فيه على الشأن التربوي والأخلاقي.

٢- أن النظام التربوي التعليمي شبكة من العلاقات والخطابات والوسائل يتداخل فيها سلوك المعلم، وفضاء القسم، والمحتوى التعليمي، والأنشطة التعليمية، وجماعة المتعلمين، والإدارة للمدرسية وغيرها.. فلكل طرف سلطته التي يمارسها، والمستهدف واحد طبعاً هو المعلم الذي نعتقد أنه ينبغي أن يتوفر على مواصفات وكفاءات ثلاث تجعل منه عصباً نافعاً لنفسه وجمتمع:

أ- القدرة على الإسهام في عملية بناء المعارف بمختلف أنواعها، وعدم اقتصاره على تلقّيها واستيعابها، وامتلاك آليات تجديد التكوين الذاتي المستمر مدى الحياة.

ب- امتلاك المهارات العقلية (التحليل - النقد - التعليل - التصنيف - الاستدلال - التمييز - الاستشراق - الحوار) والتقنية (امتلاك القدرة على الإنتاج العلمي والفني المهني واستثمار تكنولوجيا الإعلام والاتصال في التكوين والبحث والتواصل).

ج- ترسيخ القيم التي تحكم علاقاته مع خالقه وجمتمع نفسه؛ وهي قيم مثلى تؤهله للقيام بمهمة الاستئصال.

فإلى أي حد استجابت مقاصد أنظمتنا التربوية الإسلامية المعاصرة لهذه الفوائد والمبادئ وحاجات واقعنا المعاصر يا ترى؟ ■

^(٦) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأستاذة بطوان / المغرب.

المصادر

^(١) الفكر التربوي في الأندلس، عبد البديع الخولي، دار الفكر العربي، ١٩٨٥م.

^(٢) دور الفقهاء في الفكر التربوي الإسلامي، محمد طايغ الحسين بمنزوة - عبد السلام السقالي، المغرب.

^(٣) التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، هشام نشابة، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

^(٤) موسوعة التربية الإسلامية: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأرقم، عبد الأمير بنيس الدين، دار الأرقم، ١٩٨٤م.

إليه فتضرّع!

ذاب قلب الحَجَر تضرّعاً،

وانفجر فؤاد الأرض توسلاً..

وهذا الشجر.. أغصانه أكفّ ضراعة،

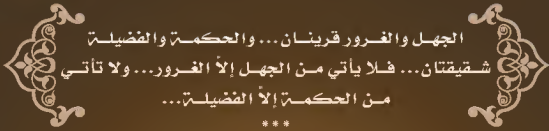
فارفع إليه كفيك،

ولا تكن دون الحجر والشجر،

واطلب لشتاء قلبك ربيعاً،

ولتضربك قرباً وقبولاً..





أخلاق وأشواق في الطريق إلى الله

أ.د. محمد عبد النبي*

والذين يترقبون الجزاء على التكليف واحمون، بغفلتهم عن كونها ثواباً و"نتيجة لنعمة سابقة، وليست مقدمة لنواب لاحق". وهذا يتفق مع اعتبارها المقصد الأسمى والغاية القصوى من خلق الكون ولا يمكن للمكلف أن يقوم بحققها إلا إذا وقف على حقيقتها وأداها بإخلاص وتذلل "مظهرًا عجزه مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، ومسلماً للأمر والتدبير كله إليه وحده مع الاعتماد على حكمته دون الهام لرحمته ولا القنوط منها".

حين نزعهم بأن دعوة بديع الزمان النورسي بهيمن عليها الخطاب التربوي والمُزرع السلوكي، فليس هذا انفاصاً من شمول لم يدّع، بل هو شرف يحرص على التفاخر به تلميذ وتابع، وتزّل قدم من يحصر النهج كله فيه خضوعاً لظرف طارئ، أو اغتناماً لمامش يُحرص عليه. سعى بديع الزمان إلى التركيز على علال العبودية اختصاراً "لأنها شرف عظيم، وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف". وهذا يعني أن ممارسة وظائفها نعمة في حدّ ذاتها،

ح

العجز والعشق.. أو طريق العبودية

وفي لفظة تنم عن ذوق ومكابدة يريد سبيل العجز تأكيداً للوصول: "إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله". ثم يستدرك على هذه التسوية بأن الوسيلة الأولى "أقرب وأسلم" مبرراً لذلك بأنه "يوصل إلى الخبوية بطريق العبودية" والآخر تتحد فيه الوسيلة بالغاية، وتنزع منه اللذة في المكابدة ذلةً يُبتغي وإنكساراً يُراد، فضلاً عن كونه طريقاً لا تصفو دلالة، وقد يسلكها من لا يرجو للشريعة قدراً. وبإشهار العجز المطلق تنفتح عطايا العبودية، فالإنسان بقوة ضعفه وفكرة عجزه أقسى وأقرب مراتب؛ إذ يُسخر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقدر على عشر معشاره باقتناده، فهو كالصبي يصل ببيكانه إلى ما لا يصل إليه بالوف أضعايف قوته، فيفتقر بالتسخير لا بالغلبة. فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاخته بالاستمداد والتضرع والعبودية".

ولما كانت حياة بديع الزمان تطبيقاً حياً لما يعلنه من حكم وحقائق، فإنه يقول -تأكيداً للإكرام الملازم للعجز-: "عرفت بالعجز والفقر غير الخدودين الكامنين في حياتي القدرة المطلقة لخالفتي ورحمتي الواسعة، من حيث إزالة حاجاتي التي لا تنتهي، ودفع أعدائي الذين لا يُعتدّون، فعملت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والاتئاج والتئلل".

وحسب لا تذهب بعيداً ظنون من يتلفظ الكلام ولا يحققه، أو من يتشوق لسماع ما يحيل إليه ويتبعه، أو من يستسهل الأشكال والرسوم وتبعيه المقاصد والمعاني ينه الثورسي إلى أن المقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس".

وفي التشبيه السابق للعجز بالعشق إشعار ضمني باللذة التي تصاحبه، صرح بها في موضع آخر -حين ربطها بالخوف والرجاء- حكمة تلازم التئلل نفساً في مسلك العبودية- فقال: "إن العارف بالله يتلذذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه؛ وحفا إن في الخوف لذة، فلو تمكنا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيب حالنا وألذها؟! فما يكون جوابه هو: عندما أُلذ بصدر أمي الخون، بخوفي ورجائي وعجزتي... ومن هنا وجد الذين كمل إلتاهم لذة تفوق أية لذة كانت في العجز وخافة الله، حتى إهم تروؤا إلى الله براعة خالصة من حوهم وفهمهم، ولاؤوا بعجزهم إليه تعالى، واستعاضوا به وحده، ملقعين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الخليل".

الخوف اللذيذ.. أو طريق الخبوية

إن الشعور بالمعية والرعاية يؤد في النفس ما يسميه بديع الزمان بـ"الخوف اللذيذ" الذي يقود إلى الخبة واتخاذ الوضع الجميل حسبما يحبه الله ورضاه. والخوف أيضاً "سوط تشويق يدفع الإنسان إلى حزن رحمة تعالى. ولئن كان للخوف من الله لذة إلى هذا الحد فكيف محبة الله سبحانه؟! فيكون بإشهار العجز والخوف لذة في العلاقة مع المحبوب، تنشأ عنها الخبة، التي تقود إلى الانصياع والطاعة والإحبات.

إن الذي يستشعر عظمة الله ويخشاه في الغيب والشهادة هو من أمامه المصائب، أو شفق وطأها على قلبه، وبما بُرّفه أيضاً من رجاء يقوى أمّله في الله، ويدفعه لطمع في رحمة، فليجأ عنباً للدعاء ليرتفع البلاء أو يُقضى بالطف فيهِ، و"يتحصن من كل مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل" ثم يضرب لأثر الإيمان مثلاً فيقول: "فلو أصبحت الكرة الأرضية قبلة مدبرة وانفجرت، فلربما لا تحيف عابداً لله ذا قلب منور، بل قد ينظر إليها أهما خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، وتبملأها بعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت -و لو كان فيلسوفاً ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى في الفضاء نجماً مندباً يتحوّر الخوف ويرتشع لهلعاً ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟! بل إن انعدام الاطمئنان والأمان أدّى ببعض كبار العلماء والأدباء في نهاية حياتهم إلى الانتحار.

إن الشفاء من ألم الخوف الذي يزيل لذة الحياة الدنيوية "أن تنصت الإنسان بالتسليم لدعوة القرآن، فيقلب العجز تذكرة دعوة للاستناد إلى القدير المطلق، والاتصال بسر التوكل بنقطة استناد فيها أمن وأمان من الأعداء". وكان قد ذكر "أن التداوي بالقرآن يحل الفقر المطلق الأليم شوقاً للذلة إلى ضيافة الرحمة، واشتهاء لطيفا لتناول ثمرات رحمة الرحمن، فتزداد لذة الفقر والعجز مراتب على لذة الغناء والقوة".

التسليم وخفايا الابتلاء

تتأرجح حياة الإنسان بين معاهد الأمل، تراوده في الحقيقة تارة وفي الخيال تارة أخرى، وبين فترات ألم قد تسلمه -إذا طالت- إلى يأس يُقعد أو ترم بضيره، ولا ينجيهِ إلا التسليم بسنة الابتلاء يقدر، واعتقاد في حكمة البلاء يتنزل، يُقنن بخبره وشره من يدين لله بالوحداية، تنمو به بكرة الخوف في النفس حيناً، وتزهر به نبتة الرجاء حيناً آخر، ولذلك ينهي اعتبار الآلام والأوجاع



الروحانية "أسواط رباتية تحت على المجاهدة والصبر، إذ تقتضي الحكمة الخيلولة دون الوقوع في اليأس، وكذلك دون البقاء في الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التحمل بالصبر والتحلي بالشكر".

ولموت باعتباره بلاء يقيق بالإنسان من كل جانب، لا يمكن تجاوز القلق الذي يجلبه إلا بالاستسلام والتسليم بوجود حكمة في كل ما يفعله الله، ومنها أن يبقى القلب معلقا بين الخوف والرجاء. ولو كان العمر معلوما لكان القلق أشد، فمن رحمة الله -عند المقارنة- أن يؤثر نفسه بمعرفة الآجال، وإلا "لقتضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوبا مدهوشا، كمن يساق خطوة خطوة نحو حبل المشقة، بينما تقتضي المحافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقا قلبه بين الخوف والرجاء: أن تكون في كل دقيقة قمر بالإنسان إمكان حدوث الموت، أو استمرار الحياة، وعلى هذا يرتجح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل، على ألف سنة من عمر معلوم الأجل".

ويبسبب الغفلة عن عقيدة الرزق، وخلو القلب من معانيها ينشأ الحرص بديلا، تتمم بوادره شيئا فشيئا، فيحيله الكناثر إلى طمع يذل صاحبه، وإذا غلبت هذه الطباع على المجتمع يعدو التنارع على الخطام مسلكا بقود إلى إفساد العلاقات وخراب الذمم، يقول بديع الزمان: "الحرص داء كالعداء، بل هو أضر على الحياة الإسلامية وأدهى عليها. نعم، الحرص ببلاته سبب

الخيبة والخذلان، وداء ويبل ومهانة ومذلّة، وهو السذي يجلب الحرمان والدناءة". ثم يربط بين ذلك وبين التوكل فيقول: "والحرص يظهر تأثيره السيء بدءً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصغر فرد فيه، بينما السعي وراء الرزق الممكّل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان، ويزور أثره النافع في كل مكان".

وكعادة الرجل في ضرب الأمثلة لتأكيد المعنى يلفت الأنظار إلى مفارقة عجيبة بين النبات والحيوان، حيث تتساق الأزواق سواقا إلى من لا يرح مكانه، ويُمَي الحراك من عُرف بالعدو فلا يبلغ بعض غايته إلا بالجهد الجهد ينزله "فالأشجار... تُهرع إليها أرزاقها سريعة وهي منتصبّة في أماكتها متمسكة بالتوكل والقناعة، دون أن يبدو منها أثر للحرص. أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلا بعد جهد ومشقة، وبكمية زهيدة ناقصة، ذلك لأنها تلهث وراءها بحرص".

ولا تظن أن التوكل هو رفض الأسباب ورفضها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها... أما التشبّث أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي.

بها الجميع، سواء أراحوا أو لم يريوا، ولا تخلّ عندئذ سر التكليف وحكمة الإيمان المرتبطان بإرادة الإنسان واختياره".

الرزق.. أو طريق الإدلال

لقد ذكر بديع الزمان سبب إهمام الرزق وإخفائه فقال: "لو كان الرزق معبّأ كمشروق الشمس وغروبها... لكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملقعة كلها بالشكر الجميل والرضى الحسن قد انسدت عن آخرها، بل لكانت أبواب العبودية الخاشعة المضارعة قد انغلقت نهائياً".

والحديث عن الرزق قد أولاه النورسي عناية خاصة من حيث تعلقه بالعبودية والتوكل تحقيقاً أو انتقاضاً، والكلام السابق جزء من تلك العناية، أما الجزء الذي قد يفوقه أهمية فهو الاعتقاد الشائع بتلازم سببي بين السعي وبين الكسب والتحصيل،

العبودية . وسبيل ترسيخ الحرية

وقد يُثار هنا على بديع الزمان سؤال مهم مفاده: "ألا يوحى تأكيد معاني العبودية بأنه لم يترك للحرية مجالاً لتسيخ فيه؟" أو بعبارة أخرى: "ألا يمكن القول بأن ترسيخ معانيها على وفق الرؤية النورية يجعل العبد ذليلاً مستكيناً أمام الله وأمام الناس أيضاً، فيصاب بعبادة على مستوى حياته الدنيا لا يتقلده منها إلا شعاري في الجهة الأخرى تغلّت به من كلّ عقال؟"

ويمكن القول جواباً على هذا السؤال: إن العبودية التي يريدها الرجل هي تلك الحالة التي يجعل المسلم يستسلم لله وحده، ويسلم قياده له لا لشريك له، ليخرج من قلبه كل الأرباب، ولتفقد كل الربوبيات بريقها أو سطوتها، فيغدو القلب العاقر بذكر الله خائلاً من كل خوف أو رجاء إلا منه سبحانه، "فمن كان عبداً لله لا يكون عبداً للعباد"، ومن "أراد العبودية الخالصة لربّ العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبداً للعبيد، وإن جني فوائد الحرية الحقّة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستعداد من الإيمان"، و"المؤمن حرٌّ في ذاته، فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتنزل للناس، بمعنى: كلّما رسخ الإيمان قويت الحرية"، ومفهوم هذه القاعدة عند بديع الزمان أنه كلما قلّ الإيمان كلما ازدادت فرص الوقوع في الأسر، أو كلما آتست طبائع الاستبداد فراغاً في القلوب ملأته بالذنوب لربوبيات التي تنشئها، وفي عبارة رائعة يؤكد فيها الترابط السابق فيقول: "فبقدر قوّة الإيمان تتلأأ الحرية وتسطع".

الوكل والنواكل.. أو محاذير الأسباب

تعرّض مفهوم التوكل من قبل طوائف وجماعات إلى تفسيرات أسلمته إلى مسلك التوكل الذي عدّ من قبل بعض المصلحين والدعاة من أهم أسباب الوهن الذي يعصف بالأمّة، باعتبار أن المفاهيم المغلوطة تؤثر سلباً على وعي المجتمع، فيستقرّ في روعه أنه على الجأفة، ولا يسعى إلى تغيير يقلع به عن أسباب التخلف، وهذه من أخطر حالات المرض حين يعتقد العليل سلامته فلا يبحث عن شفاء.

ومن الكتابات التي تألّق فيها بديع الزمان –بالرغم من ظروف الموضع زماناً ومكاناً- موضوع التوكل تحقيقاً وممارسة. والمتعلّقون بالظاهر قد يصعدون حكماً على الرجل يضعونه به ضمن التصنيف التقليدي المعروف، فيضمّونه حقه وحقّ الأحياء في المعرفة والوفاء، وكأنه خشى أن يفهم خطأ بتركيزه على معاني العبادة والعبودية، فراح يُسرّع إلى وضع الأمور في نصابها، تارة

بتقيد كلامه في إطلاق سبق، وتارة بإلحاق التقيد والاستدراك في الموضع نفسه، وهذا هو الذي سلكه مع مفهوم التوكل، حيث يربطه بمفاهيم عديدة يأخذ بعضها بحجز بعض: "فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهّل الطريق إلى سعادة الدارين". ويوضح سعادة الدنيا بالتوكل فيقول: "نيل مقام التوكل ودرجة الرضى ومرتبة التسليم، هذه المقامات هي السبيل إلى تلوّق السعادة الحقيقية، والتسليم الخالصة، واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقر به وحشة"، ويوضح سبل الوصول إلى هذه السعادة فيقول: إن المتوكل "يسلم أعباءه الثقيلة بأمانة في يد القدرة للقدرة المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثمّ يستطيع أن يرتفع طائراً إلى الجنة لدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل استجده تلك الأتغال إلى أسفل سافلين".

وبعد التقرير والتأكيد يستدرك قائلاً: "ولا تظنّ أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجُب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومدارها، أما التشتّب بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعلي؛ فطلب المسببات إذن وتربّ النتائج لا يكون إلا من الحقّ ﷻ، وأن للذة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده".

ولا يكفي بما سبق حتى يزيد التوكل توضيحاً والتوكل بياناً وجلاءً، والعلاقة الدقيقة بينهما كما ينبغي لها أن تستقر، فيقول عن التوكل: "هو تكاسل في ترتيب المقدمات، وهو في حكم التمرّد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى، والآخر (أي التوكل): هو توكل لإيمان في ترتيب النتائج، وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج شرطية عدم التدخل في التقديرات الإلهية". ■

(٤) جامعة الجزائر / الجزائر.

المصادر

- (١) المتنبي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي.
- (٢) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٣) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٤) الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٥) المصنّعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٦) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٧) صيف الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالح.
- (٨) سورة ذاتية لسعيد النورسي، إعداد: إحسان قاسم الصالح.

ليست المشكلة غياب الحداثة

إنما المشكلة غياب الهوية

✦ أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي ✦

غير أن مشكلة إنسان الحضارة الحديثة، أنه يتطلع دائماً إلى أي جديد تركز إليه النفس، ولو تجاوز في سبيل ذلك ذاته وتكرهه، فبقع من جراء ذلك في تنكّس مع إنسانيته، وفي ثنائية مهلكة ما بين مستلزمات هويته الثابتة وأهوائه المتجددة. ولكي نعالج هذه المشكلة، لا بدّ أن نجعل أولى خطوات المنهج المرسوم لتحديد حياتنا وتطويرها، التعرف على هويتنا، ومن ثمّ تجديد الارتباط بها والتمسك بمقتضياتها.

الحداثة والأصالة

ونظراً إلى أن ميزان حديثي عن علاقة الإنسان بقطبي الحداثة والأصالة، إنما هو الإسلام، فالهوية التي ستكون محل اعتبار لي في معالجة هذا الأمر، إنما هي عبودية الإنسان لله.

من شأن الإنسان في كل زمان ومكان أن يملّ من القديم، وأن يخفّف نفسه إلى الجديد. ولكن من واجبه أيضاً أن يلازم إنسانيته، وأن يتقيد بمعانيها وأن يتعامل مع مستلزماتها، وأن لا يملّ من الارتباط بذلك مهما تقادمت صحة الإنسان لمعاني إنسانيته، بل إنه لا يستطيع أن يعيش إلا بهذا الالتزام، وإلا من خلال أداء هذا الواجب.

بين القديم والجديد

إذن، فالارتباط بالهوية الإنسانية، هو للمتعلق والأساس. أما التوجه إلى التفسير والتطوير واستحداث الأنماط الجديدة للحياة، فيجب أن يتم داخل هذه الهوية، وأن يكون من أجل خدمتها وحمايتها.

غير أن ثمة جامعاً مشتركاً بين المسلمين وغيرهم، لتعاون في حلّ هذه المشكلة، ألا وهو الهوية الإنسانية. ذلك لأن الله لم يعرف عباده على هذا الدين منذ فجر الوجود الإنساني ولم يلزمهم به، في أصوله الاعتقادية وأحكامه السلوكية، إلا ليكون وقاية للمعاني ولتلقين الإنسانية التي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات. ولو علم الله أن في الفلسفات والأنظمة الاجتماعية ما يغني عن التعليمات الإسلامية التي شرفنا الله بها، لحماية الإنسانية من العبث بها والظلم لها، إذن لأمرنا بالتوجه إلى تلك الأنظمة والفلسفات.

إذن، فحديثي الآن عن الإسلام وما قد يكون فيه من ثواب ومتغيرات، ليس إلا حديثاً عن السور الذي يحفظ المعاني الإنسانية من العبث بها ومحاولة القضاء عليها..

إنني لم أجد داخل بنيان الحقائق الإسلامية، التي تتألف من المعتقدات العلمية والأحكام السلوكية إلا الثواب التي لا تتغير. ذلك لأن كل ما فيه حقائق، والحقائق لا تقبل - من حيث المطلق - أي تطور أو تغيير.

غير أن وظيفة هذه الحقائق الثابتة، ألما تبتع الإنسان المسلم على أن يمارس حياته الفكرية والحضارية والاقتصادية عموماً بطريقة متجددة، طبق نظام ثابت معين تحكمه تلك الحقائق التي لا تقبل التغيير.

ومن المهم أن نعلم أن هذه المتغيرات الفكرية والحضارية ليست داخلية في شيء من تلك الحقائق، وإنما هي من آثارها وثمارها. ومن حكم الله الباهرة أن الإسلام لا يمكن أن يعث للمسلمين على التجدد المستمر في حياتهم، إلا إن كان هو بحذ ذاته - أي متمثلاً في حقائقه - ثابتاً مستقراً يتسامى على التطوير والتغيير.

وان هذا الموجز الذي أضعه أمام القارئ لا يتسع - في إيضاح هذه الحقيقة - إلا لطائفة يسيرة من الأمثلة التطبيقية، أرجو أن تكون وافية ببيان هذه الحقيقة الهامة.

إليك أولاً هذا المثال: إن من أجل مبادئ الإسلام، دوران أحكامه على رعاية مصالح الناس على أن يراعي في ترتيبها سلم الأولويات على الشكل التالي: رعاية مصلحة الدين أولاً، فالخياة ثانياً، فالعقل ثالثاً، فالنسل أو الأسرة رابعاً، فالمال خامساً.

إن ما لا ريب فيه أن هذا المبدأ ترجمة حقيقة ثابتة تستعصي على أي تطوير أو تغيير له. غير أنه يعث على سلسلة من التطورات لا نهاية لها في نطاق التعامل مع الحياة. إنه يتطلب منا رعاية مصلحة العقل كلما كان ذلك متسقاً مع مصلحة الحياة،

ولكن المبدأ ذاته يفرض علينا تحاواز مصلحة العقل إذا كان في ذلك تهديد لمصلحة الحياة.

وكنللك مصلحة المال؛ إن هذا المبدأ يتطلب منا رعاية المال كسباً وتنمية وحفظاً، بكل الوسائل والوجوه الممكنة، ما دام التنسيق قائماً بين متطلبات هذه الرعاة، ورعاية المصالح الأربع التي تسبقها في الأولوية والاهتمام. فإذا قام التعارض بين متطلبات رعاية المال، وأتى من تلك المصالح الأخرى وجب علينا تجاوز مصلحة المال بالقدر الذي يحقق التنسيق بينها وبين ما عارضها من المصالح الأخرى.

إن هذا المبدأ الثابت، بيعث على حركة مستمرة في تجديد العلاقات التنسيقية بين هذه المصالح، كلما قام فيما بينها أي خلل أو اضطراب. ومن الواضح جداً أن هذا التحرك المطرد، إنما هو ظل لتلك المبدأ الثابت، وليس هو المبدأ ذاته كما قد يتوهم بعض السطحين.

وإليك مثلاً آخر: من المبادئ والأحكام الثابتة حرمة الغش والخداع في المعاملات المالية، وحرمة التعاملات التي تؤدي إلى استيلاء النقود من النقود دون ربط لها بالمناافع (أي الربا). إن الانضباط بهذا المبدأ الثابت، من شأنه أن يفتح السبيل إلى بدائل متنوعة كثيرة في أوجه التعامل المالي، مثل عقد المراجعة، والمضاربة، وأنواع كثيرة من الشركات وكل ما قد يستجد من أوجه المعاملات المالية البعيدة عن المراهبة والغش والخداع.

إنه مبدأ ثابت بحذ ذاته، ولكنه يدفع إلى استحداث ألوان وأطوار جديدة من المعاملات الاقتصادية والمالية.

وإليك مثلاً آخر: من المبادئ الثابتة اشتراط العدالة في الأشخاص الذين يتولون المناصب الحساسة كالقضاء وشيوخه، وفي الأشخاص الذين يدلون بشهادتهم في المحاكم. والعدالة في الشخص أن لا يرتكب جهراً ما قد يخجل بالمروءة، ويتأثر على ذلك.

ولكن ما هو الشيء الذي يخجل بالمروءة؟ إنه المثابرة على ارتكاب أحد الخرمات، أو مخالفة المألوف والأعراف الدارجة بين الناس.

إنه مبدأ وحكم ثابت في الشرع لا يتبدل، ولكنه كما ترون مربوط بتقلبات الأعراف الاجتماعية. فقد كان من مقتضى هذا المبدأ أن تسقط مروعة من يرتدي مثلاً البظال الضيق وبمشي حاسراً بين الناس في الشوارع العامة قبل عدة قرون لمخالفته الأعراف الدارجة آنذاك. ولكن هذه الثياب نفسها منسجمة اليوم مع المروعة كل الانسجام، فلا تمنع من شهادة ولا من تولي



الحرائق

قلوب فتية تحترق...

أرواح ندية تتأكلها ألسنة النيران...

ها هم فتية الإنقاذ قادمون...

وبالنيران يحيطون...

وسياجاً من قلوبهم ينصبون...

ويُسِّطُ الإنقاذ على الأرض يقرشون...

إنهم قادمون.. ويجارحهم كلها يفتنون..

أولئك الذين في قلب النيران يُسجرون..

إنهم قادمون.. إنهم قادمون..

منصب حساس. ويقول الإمام الشاطبي - وهو كما تعلمون من أبرز علماء غرناطة - إن خروج الشخصية الإسلامية إلى الشوارع والمخاض العامة في المشرق حاسر الرأس، يسقط المروعة وبرة شهادته، ويمنع من تبوء مناصب القضاء ونحوها. ولكن ظهور هذه الشخصية الإسلامية عندنا في المغرب بهذا المظهر لا يسيء إلى المروعة ولا يؤثر في صحة شهادته ولا يمنع من تبوء منصب.

وهكذا فقد جعل الإسلام من العرف الاجتماعي الدارج ميزاناً للباقة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم بل كل إنسان، والتي تكسبه المروعة حسب الاصطلاح الفقهي. على أن لا يتعارض العرف مع ثابت آخر من ثوابت المبادئ الإسلامية.

حاجات الإنسان والإسلام

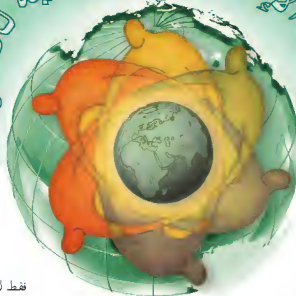
إذن، فالمبادئ والأحكام الإسلامية كلها ثابتة لا تتسحق نيارات الحداثة. وسبب ثباتها أنها تتجاوب مع الحاجات الإنسانية الثابتة. ولو تطورت إنسانية الإنسان لتطورت هذه الأحكام والمبادئ معها. ولكن سبيل تنفيذ هذه الأحكام والمبادئ تخضع - كما رأينا - للجدد وللتطور دائماً. وللأعراف الاجتماعية السلمية سلطان مستمر على ذلك.

وحصيلة القول أن الأحكام التي تتضمنها الإسلام كلها ثوابت لا تتبدل. ولكن صدق التمسك بأحكامه، يبعث على التطور الدائم على أن يتم ذلك برقابة دالة من تلك الأحكام. والبرهان الجليّ على ذلك أن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في عصر خاتم الأنبياء محمد ﷺ، والذين كانوا مجموعات من قبائل البادية العربية، تطوروا خلال نصف قرن في معاشهم وأساليب حياتهم كلها، أكثر مما تطوره المسلمون المتنورون في هذه القرون الأربعة الأخيرة دون أن يدفعهم ذلك التطور السريع إلى تطوير حكم واحد من أحكام الإسلام، بل كان سرّ تطورهم شدة ثباتهم واستمرار مسكهم بتلك الأحكام.

إذن، فالمسلمون بمقدار ما يخلصون لمبادئ إسلامهم ويتأثرون على التمسك بها، تفتح لهم تلك المبادئ آفاق التطور والحداثة وتدفقهم سريعاً إليها ضمن خطة ونظام.

أردأيت إلى العربية التي تركبها، إن الإسلام كهذه العربية. بمقدار ما تحافظ على دخالها ونظامها تتفكك وتوصلك إلى غاياتك، فإن تيرمت بها وملئت من مظهرها ونظامها وأخذت تعبت بها، توقفت وأوقفك وخلفك عن بلوغ آمالك. ■

الافتقار إلى سلام الاختلافية للأخوة



آ.د. محمد عمارة*

فقط للحق، لله ﷻ واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع، والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانوناً إلهياً تكوينياً، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم -لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة- تعايش كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والنسرايع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحمل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محل التعايش والتعارف، الأمر الذي يصادم سنة الله ﷻ في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهب في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله. وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في

المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما

انظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدس، ووحى إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاري للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرناً، وحتى هذه المحطات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشرعة الخاتمة، فإنها تستظل منهاجاً للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حق" هو الله ﷻ، و"خلق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي تكون "الواحدة والأحدية"

الله أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الغمرات: ١٣). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله، والسماحة هي السبيل لتعايش الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافتها وحضارتها، باعتبار ذلك سنة من سنن الانبثاء والاختيار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسايق بينها جميعاً على طريق الحق وفي مبادئ الخيرات ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِثْجَاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ٤٨). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.

وانطلاقاً من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانوناً كونياً، كان "العدل" الذي هو معيار النظرية القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥)، بل ويوجب الله ﷻ علينا العدل حتى مع من نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْبُدُوا اللَّهَ أَقْرَبَ لِلنَّفْوَ﴾ (البقرة: ٨).

كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامة هذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبداً في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِئَةٌ بِنُكُونِ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَحْجِدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣).

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضاً في الحديث عن النصارى عندما ميز بين من هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَسَارَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قَبْسِينَ وَرَهْبَانًا وَهُمْ لَا يَسْتَحْجِدُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول نَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّخَعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (البقرة: ٨٢-٨٣).

والمطلق الإسلامي هذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فإله ﷻ رب العالمين جميعاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ (الغمرات: ١٣). وليس معيار التفاضل لوناً أو جنساً أو سلاوة أو أية صفة من الصفات الصليقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَفْضَحْ أَمْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠).

وتأسيساً على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى موراث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ. فالقرآن الكريم لم يأت نافعاً لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدقاً لها، ومهيئاً عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعباً لأركان العقائد فيها، ومضيفاً إليها، ومصححاً لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تكرر النصرانية وكانت النصرانية تكرر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٩١)، ومؤكداً على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح أو مدعه الله فيها من هدى ونور ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ﴾ (آل عمران: ٢)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (البقرة: ٤٤)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (البقرة: ٤٤).

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية

وما يدينون.^{٣٠} وعقد لهم عهداً عاماً دائماً لهم ولسائر من يتدين بال نصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السّماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحراراً في "الدين"؛ فرأينا أباً بكر الصديق عليه السلام يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيد بن أبي سفيان "إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فأنهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له" (رواه مالك في الموطأ).

ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب عليه السلام يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القنس (إيليا) عند فتحها سنة ١٥ هـ / ٦٣٥م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيها وبريئها وسائر ملتها؛ وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهلم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبيهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم. ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيّهم وصلبيهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبيهم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين".^{٣١}

بل لقد امتدت هذه السّماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية (اليهود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت للمتلدين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها بجوس عبدة للئار- سأل عمر بن الخطاب عليه السلام الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بأجوس؟" فوّه عبد الرحمن بن عوف عليه السلام: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "ستوا بهم سنة أهل الكتاب".^{٣٢}

والإسلام لم يفرض على منكبيه وجاحديه والكافرين به عقوبة دينية، وإنما أعلن أن حِسَامِهِ على الله يوم الدين. ولذلك قال الإسلام حق للمشرّكين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله ﷻ: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٤-٦).

الفلسفية للكون والوجود، المخزومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف كقانون تكويني (أزلي أبدي)؛ الأمر الذي يجعل السّماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعياً في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرايع والديانات والثقافات والقيمات والحضارات.

التطبيق النبوي للسّماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل موارث النبوات، فلقد تفرد بالسّماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح؛ دون تفرق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام. ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكَتَبَهُ وَرُسُلِهِ لَا تَنفِرُ بَيْنَ أَخَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.

وانطلاقاً من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرسل والأنبياء؛ فهم جميعاً أبناء دين واحد، وشرايعهم (أمرهم) شئ: "الأنبياء إخوة من علّات، وأمهاتهم شئ، ودينهم واحد" (متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: "نحن أحق وأولى بحوسى منكم" (متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة" (متفق عليه).

ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسّماحة القرآنية عند حدود السنة القرآنية، بل تحولت هذه السّماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّها وقعدھا دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دستور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخر الديني (اليهود) جزءاً من السذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لل يهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم".^{٣٣}

وعندما جاء وفد نصارى "بحران" سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م إلى مدينة رسول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصولاً فيه صلاة عيد الفصح، موثّين وجوهمهم إلى المشرق، ثم تركهم

ولم يقم رسول الله ﷺ حداً ولا عقوبة دينية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. ﴿فَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)؛ لأن الإكراه يشتر نفاقاً، ولا يشتر إيماناً، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.

ولم يقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة حداً على مرتد إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الخرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالتفر الذين اغتصبوا إهل الصدقة (مجال الدولة) وقتلوا العلمان الذين كانوا يرفعون هذه الإبل (عَمَلُ الدولة) ومثلوا بجثثهم، وارتلوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الخرابة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء نفر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُا فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آلَ الْأَنْفَالِ: ٣٣-٣٤). وإلا الذين تألوا من قبل أن تغدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ (البقرة: ١٩٠).

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائماً وأبداً في سياق الحديث عن صدد عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنهم في دينهم، وأخرجهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراءة" و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ نَمُتُوا بِكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرُجْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩).

وفي التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحو في ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان

في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقعت عند تحرير المشرق من قهر القوى الاستعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا المشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير المشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديسة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالمائة من السكان. فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحررة من الروم للمتربصين الذين ظلوا يبيتسون الجيوش لإعادة احتطاف المشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسة لحرية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.

ولقد شهد هذه الحقيقة - حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام - التاريخ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسلامي هو الذي أنقذ المسيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليتمكن أن نقول - دون مغالعة - إن بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبة الإسلام وسماحة الإسلام. فعمرو بن العاص ﷺ هو الذي آمن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعادته إلى شعبه بعد ثلاثة عشر عاماً من الحرب والاختفاء عن أعين الرومان.. وهو الذي حرر كنائس نصارى مصر وأذيرهم من الاعتصاب الروماني، لا ليجعلها مساجد، وإنما ليردها لأصحابها النصاري يتعبدون فيها بحرية، للمرة الأولى في تاريخ النصرانية المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأذيرة حر عمرو بن العاص ﷺ - لأنه مسلم - ضماير الشعوب التي أدخلتها الفتوحات في دولة الإسلام؛ لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشعوب بعد أن كان الرومان يقدموهم طعاماً للثيران والأسود..!

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصديق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضاً هذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص عليه السلام مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقاماً لظلم من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" - وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتحرّتهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم تخض المسلمون وحازوا كل مدينة بمصر.. وكان هرقل حزينا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص عليه السلام يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يتركب شيئاً ما، سلباً أو هبلاً، وحافظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".^(١)

إنما شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع، ومن قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص عليه السلام البطريرك القبطي "بنيامين"، وآمنه على نفسه وكنائسه ووعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

ولقد عبّر الأتبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدت في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدنهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتقميلها انظلمة المارقون".^(٢)

تلك الشهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول:

إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإفقاد" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هارين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص عليه السلام، حتى "ليروى أنه خرج للقاءه من أديرة وادي النظرون سبعون ألف راهب، يد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتاباً (بالأمان) هو عندهم".^(٣)

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ / ٦٤٦م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان عليه السلام، هبوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي لبلاغ القرآن.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدوا الاعتماد على شهادتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام. ■

(١) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

المواهب

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للمهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د. محمد حميد الله الخليل آبادي، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧-٢١.

(٣) سبل الهدى والرشاد لخميد بن يوسف بن صالح الشامي، ٦٤٢/٦.

(٤) الوثائق السياسية، د. محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) الوثائق السياسية، د. محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٦) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فليب فارح، يوسف كبراج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٢٥.

(٧) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٨) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص ٢٢٠.

(٩) تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص ١٩٤.



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥).

السماء والحفظ الإلهي



د. أ. د. زغلون المجدار *

السكان، وهذه الظاهرة تدل على عناية الله تعالى ورحمته بعباده. وفي هذا تأكيد وتصديق لقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (فتح: ٦٥). أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة.

مع القمر

إن أقرب أجرام السماء إلينا هو القمر الذي تقدر كتلته بنحو سبعين مليون مليون طن، ويدور في مدار حول الأرض بقدر طوله بنحو ٢٠٤ مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بنحو كيلومتر واحد في الثانية، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذلك يُرى منه وجه واحد لأهل الأرض.

ومدار القمر حول الأرض، وكذلك مدار الأرض حول الشمس يضاوياً الشكل (أي إنه على شكل قطع ناقص). ومن قوانين الحركة في المدار البيضاوي (أو مدار القطع الناقص) أنَّ

تتضمن هذه الآية الكريمة معاني علمية دقيقة، فالسماء - وهي كل ما علانا - تبدأ بغلاف الأرض المواسي؛ فالفضاء، فأجرام السماء، المشع منها بذاته مثل النجوم، فالمجموعات النجمية والسدم والمخترات، وغير المشع بذاته كالأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك والجزئيات والسنرات والغبار الكوني.. وجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها تحت تأثير عدة قوى أهمها الجاذبية والقوى الناشئة عن الحركة. ولقد تجلّت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيّا للأرض غلافاً جوياً يحتوي على العناصر الغازية التي لا غنى للحياة عنها، كما أنه يحمي سكان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب، والنيازك التي تهيم في الفضاء والتي عندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي (احترقا جزئياً أو كلياً) قبل أن تصل إلى السطح (العلوي للأرض).

ومن إرادته تعالى ورحمته أنَّ سقوط النيازك التي تدمر سطح الأرض نادر الحدوث جداً، وهو ينجم في الأماكن الخالية من

ت

السرعة المحيطية فيه تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن؛ وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فتزداد نسبياً بالاتجاه البعدي من الأرض، وتزداد بزيادة قوة الطرد المركزي على القمر فتدفعه بعيداً عن الأرض، وإلا اصطدم القمر بالأرض فدمرها ودمّرتها. ونقل السرعة المحيطية للقمر كلما بُعد نسبياً عن الأرض، فنقل القوة الطاردة المركزية على القمر لتلا يفرج عن نطاق جاذبية الأرض، فينبطق إلى فسيحة السماء أو تبتلع الشمس، وأعلى مقدار لسرعة سيج القمر في مداره حول الأرض يقدر بما قيمته ٣٨٨٨ كيلومترا في الساعة؛ وأقل مقدار لتلك السرعة بقدر ينحو ٣٤٨٣ كيلومترا في الساعة، وهذا يجعل السرعة المتوسطة لسبح القمر في مداره حول الأرض تقدر بنحو ٣٦٧٥ كيلومترا في الساعة.

ونفس القانون (قانون الجري في القطع الناقص) ينطبق على سبيح الأرض حول الشمس، وسبح باقي أجرام السماء كل في مداره حول الحرم الأكبر، أو التجمع الأكبر.

ويؤكد علماء الفلك أن أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية يبعد عن الشمس مسافة متوسطة تقدر بنحو سنة ٤ آلاف مليون كيلومتر، وأن يجرتنا نحو قرابة تريليون نجم.

كذلك يحمي علماء الفلك أن يجرنا المدرك من الكون أكثر من مائتي بليون بكرة تفاوتت في أشكالها وأحجامها وكتلتها وسرعة دوران كل منها حول محورها، وسرعة جريها في مدارها، وسرعة تباعدها عنا وعن بعضها البعض (كما تباين في أعداد نجومها) وفي مراحل تطورها تلك النجوم، فمن الجرات البيضاء والخزوي وغير ذلك من الأشكال؛ ومنها الجرات العملاقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، وتصل كتلتها إلى تريليون مرة قدر كتلة الشمس، ومنها الجرات القزمة التي يكاد يتعدى طول قطرها ٣,٢٠٠ سنة ضوئية، وتكاد كتلتها تتعدى مليون مرة قدر كتلة الشمس؛ وتقدر كتلة يجرتنا (سكة البناية أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) بنحو ٢٣٠ بليون مرة قدر كتلة شمسنا (المقدرة بنحو ألفي مليون مليون مليون بليون طن).

وتتجمع الجرات في وحدات تضم العشرات منها تعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من الجرات وتعرف باسم التجمعات

الجرية، وتلغي هذه في تجمعات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى التي تلغي بدورها في التجمعات الجرية العظمى، ثم تجمعات التجمعات الجرية العظمى، إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفي كل الأحوال يدور الصغر حول الكبير في مدار يضاوي على هيئة قطع ناقص، تحكمه في ذلك قوانين الحركة في مثل هذا المدار.

والتجمع الجري الأعظم الذي تنتمي إليه يجرتنا يضم مائة من التجمعات الجرية ينظمها قرص يبلغ قطره مئة مليون من السنين الضوئية وسبكه عشر ذلك (وهي نفس أبعاد يجرتنا مضروبا في ألف). وهذه الأعداد المذهلة مما قد علمنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تمثل إلا نحو عشرة بالمئة من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك، وهي ممسكة بشدة إلى بعضها البعض، وإلا لزلت وأهارت.. ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَخَبِيرٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥). وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انبَسَخَا مِنْ أَدَبٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غَفُورًا﴾ (طه: ٤١). وقال ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الرعد: ٣). وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (العنكبوت: ١٧-١٨).

وقد تمكنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء على النحو التالي:

١- قوة الجاذبية

وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير، ولكن نظرا لطبيعتها التراكمية فإنها تزداد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السماوات والأرض بإرادة الخالق ﷻ حيث تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.. ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق ﷻ لانقرض عقد الكون.

وتتجمع الجرات في وحدات تضم العشرات منها تعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من الجرات وتعرف باسم التجمعات

يعرف باسم القوة الكهربائية الضعيفة، لأنه لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا.

وفي نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة في قوة كبرى واحدة، بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم "الجاذبية العظمى" التي تربط كل صور المادة في الكون اليوم، والتي يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم والتي تعتبر وجوهاً أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد الله تعالى بالوحدانية المطلقة فوق كل خلقه.

ومن هنا ظهرت نظرية الخيوط فائقة الدقة التي تفترض تكون اللبنات الأساسية للمادة من خيوط فائقة الدقة تلفت حول دوائها فتبدو كما لو كانت نقاطاً متناهية الصغالة في الحجم متشابهة بذلك فسريط الحمض النووي في داخل نواة الخلية الحية الذي يتكسد على ذاته في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من المليمتر المكعب ولكنه إذا فرد يبلغ طوله قرابة المترين بضمان ١٨,٦ بلليون قاعدة كيميائية في ترتيب غاية في الإحكام وغاية في الإتقان. وتقرنح نظرية الخيوط فائقة الدقة، وجود مادة خفية تتعامل مع المادة الظاهرة بواسطة قوة الجاذبية.

وهنا تتضح روعة النص القرآني المعجز الذي نحن بصدد، والنصوص الأخرى المشابهة له في التعبير عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها إدراك الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء وعشرات العقود حتى وصلوا إلى إدراك شيء منها في السنوات المتأخرة من القرن العشرين.

وورد تلك الحقائق في كتاب الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، في مجتمع سادته أمية القراءة والكتابة، وأمية العلم لئلا يقطع بالشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. ■

ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد، واقترح لها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون الذي يعتقد بأنه يتحرك بسرعة الضوء، ليربط بين مختلف أجزاء الكون حسب قانون يحكم دقيق تزداد فيه قوة الجاذبية بزيادة الكتلة للجسيمين المتجاذبين، وتتناقص بزيادة المسافة الفاصلة بينهما. وقد لعبت الجاذبية دوراً مهماً في تكتيف الدخان الكوني الذي نشأ عن واقعة الانفجار العظيم، على هيئة كل صور المادة الموجودة في السماء الدنيا (على أقل تقدير)، كما لعبت ولا تزال تلعب دوراً مهماً في إمساك الأرض بغلافها الغازي والمائي، وبكل صور الحياة والنباتات الصخرية من فوقها.

٢- القوة النووية الشديدة

وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، والتي تعمل على التحام نوى الذرات الحقيقية مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأنفل في عمليات الاندماج النووي. وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا على الأبعاد المتناهية الصغر، ولكنها تضعف باستمرار عبر المسافات الطويلة. وعلى ذلك فدورها يكاد يكون محصوراً داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها. وتعمل هذه القوة على جسيمات تسمى باسم القوة اللاصقة أو الجليون.

٣- القوة الذرية الضعيفة

وتعمل على جسيمات تسمى باسم البوزونات، وهي إما سالبية أو عديمة الشحنة. وتربط الإلكترونات الدائرة في فلك النواة. وهي لضعفها تؤدي إلى تفكك تلك الجسيمات الأولية للمادة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة.

٤- القوة الكهرومغناطيسية

وتعمل على هيئة فوتونات الطاقة ما يعرف باسم الكم الضوئي. وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية. ومن ثم فهي تؤدي إلى تكون الإشعاع الكهرومغناطيسي وتؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية. وكما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة، فيما

٥- أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

وباسمك أفتح الملكوت

أ.د. حسن الأمازيغ

يقرّني من الرحمن،
هواك فكيف أجده؟
يزمّني،
يدثّرني،

وينشر لي بساط الحبّ والثقوى،
فكيف يدقّ بابي ثم أغلّده؟
وفي بناء أحياف من السلى،
وفي اليسرى لأباريق الهوى الفتاك،
وهلّ وارفّ فينا؟

أنا ما قلت:
"أوشك يا عليّ القلب أعبده"
وكيف رجّة المأوى،
حبيبي أنا في حضرة الرحمن،
سويّا تسكب الألمات..
نعبده؟

يقرّني نداؤك،
من جنّات الخلد والرضوان،
ويجني عطايه،
فكيف يردّ هذا القلب،
ما أعطاه مولاه؟
يُضَيِّبني حنائك،
فوق عرش الحبّ سلطاناً،
تدور بأمره الأفلاك،

يُوقِنُ تاجي الذهبي نور سناك،
لسوف أعطي باسمك،
ما يزخرّف شاعر الطاغوت،
وأجعل وجهك الوضاح،
مفتاحاً إلى الملكوت،
فلدى لوشاحك الحقائق.

كلّ زخارف الدنيا،
تتزلّ باسم خالقها،

على قلب الفتى وحي،
أرض حروفك الخضراء باسم الله،
فوق مروج أحراري،
وينطق الأحياء:

"أولئك الميمون لا يكذب"
فقدروا القوة فلنكنا صاحبه الريث،
رشاءً فحوا حيايته،

وأهتف باسم من حلّى جيبك،
بالشما القدسيّ فحاجا،
وأعطاك الهوى العاذريّ وحاجا،
وأعطاني،

وأعطيني شأن هذا الطير،
وأكرمه ونعمه،

وأنتسج من هواك،
على الظلال بيّ أردان،
سأتلو سورة الرحمن،

﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ رَزَبُ الْمَغْرِبَيْنِ﴾
فياي الأبيّ ونكنا نكذّبان،
وأهتف: يا حبيب القلب!
سبحانك الذي أسرى بقلبي،

من المشرق والمغرب،
ليطيقا على عبات مولانا (جَلَّال)،
تُسَبِّحُه،
تقدّسه وتعبده،

ويعدو كلّ حرف من قصائدي،
فما للحمد والتسبيح..

إصبر تنتج... وعلى الحق فاقبت...

فالصبر والثبات مفتاحا لكل الأبواب الموصدة...

أنا عين عبد الله

أ.د. عرفات بلماز*



هذه الوظائف الأربع تعمل، فمعنى هذا أن ذلك للمخلوق الحي مستمر في الحياة، ولكن هذه الحياة في مستوى النبات. ولكي يمكن الارتقاء إلى مستوى الحياة الحيوانية يجب -علاوة على هذه الوظائف- وجود وظائف إضافية أخرى مثل الوظائف العصبية والحركية والحسية.

فإذا لم تكن هذه الوظائف الحيوانية موجودة فإن ذلك الحي يكون في مرتبة النباتات. وأنت كثيراً ما تقرأ في الصحف "أن الشخص التالي دخل في حياة نباتية"، والمقصود بالدخول في حياة نباتية أن ذلك الشخص فقد الوظائف الحيوانية؛ أي فقد أعضاء الحس وللظومة العصبية وقابلية الحركة، وأصبح مثل النباتات عاجزاً عن الحركة، ولكن استمرت عمليات التنفس والدوران والمضغ وطرح الفضلات عنده في العمل دون شعور منه.

وهناك العديد من اللطائف الخاصة بالإنسان وحده مثل العقل والإدراك والإرادة والشعور التي وهبت للإنسان علاوة على الوظائف الحيوانية. ولا يمكن إرجاع هذه اللطائف إلى عضو معين إرجاعاً تاماً. فهي لطائف خاصة، وهي تظهر مرتبطة بالوظائف الحيوانية من جهة، وبروح الإنسان من جهة أخرى.

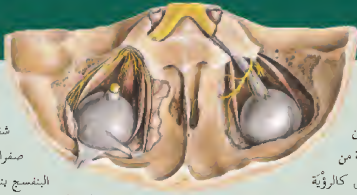
منطقة الرأس وخطورها

ولا توجد مراكز الأعضاء التي تقوم بالوظائف الحيوانية في جذع

حيي عبد الله! إن القلب والمعدة والأمعاء والكلى والرئة والبنكرياس وغيرها من الأعضاء التي وهبت لك وجعلت أمانة لديك تبدو عليها آثار صنعة حكيمة وزخارف جميلة وفنٍ رائع. كل هذه الأعضاء قد وضعت في تحاويف جسدك. وأرجو ألا تحسب أنني أستهين بما وأصغرها، فهي جميعاً أعضاء مذهلة وهي ضرورية لكي تستمر أنت في حياتك دون مشاكل ومنغصات. ولكن جميع علماء الفيزيولوجيا الحديثة وجميع أطباء القرون الوسطى للمشهورين يذكرون أن الوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء ووظائف نباتية مما يعني أن الوظائف الأساسية التي تقوم بها هذه الأعضاء هي ووظائف تقوم النباتات بأدائها أيضاً.

الوظائف النباتية والحيوانية للأعضاء

إن العمليات والوظائف الضرورية الأربع لبقاء الحياة واستمرارها -وهي عمليات المضغ والتنفس والدوران وطرح الفضلات- عمليات ووظائف تقوم بها النباتات كذلك، ولكن بأعضاء مختلفة. وإذا غابت هذه الوظائف أو توقفت، ظهر الموت؛ أي غاب ما نسميه بـ"جوهر الحياة". وبسبب هذه الوظائف المشتركة مع النباتات سميت هذه الوظائف التي تقوم بها هذه الأعضاء للوجود في جسدك بـ"الوظائف النباتية". فإذا كانت



ولكي تعرف أن الماء شفاف والثّناح أحمر والكشزى صفراء والورقة خضراء وزهرة البنفسج بنفسجية اللون فأنت تحتاج

إليّ أولاً. ولكي لا تصطدم بالجلدران عند مشيك، ولكي تميز وجه أمك وأبيك وأصدقائك فأنت في حاجة إليّ. أنت في حاجة إليّ عندما تأكل، وعندما تشرب وعندما تكعب وعندما تقرأ، وجرب محاولة المشي في الطريق لمدة عشر ثوان وأنت مغمض العينين فماذا سيحدث آنذاك؟ سيكون الأمر صعباً عليك، أليس كذلك؟! سيقف الخوف من الاصطدام بشيء أو من السقوط.

يا عبد الله! تفسّس عميقاً واشكر الله تعالى ربنا من أعماق قلبك وأنت مغمض العينين. فأنت لا تصير على الظلام عشر ثوانٍ، فما بالك لو لم تعرف الضياء والنور طوال حياتك؟ وفكر من حين لآخر في إخوانك الذين فقدوا نعمة البصر (بناءً على حكم عديدة وامتحاناً لهم) واشكر ربك لأنه ما ابتلاك بمثل هذا، وتضرّع إليه وادعه لكي يهب الصبر لهم لكونهم محرومين منّي.

بعض المفاسيل عني

والآن سأشرح بعض خواص بُنيّتي ودقائقها... وأعلم أن "جارتلس دارون" عندما شاهد بدائع صنع الله في أدرك أن من المستحيل ظهوري تلقائياً أو عن طريق المصادفات العشوائية في الطبيعة التي لا عقل لها ولا شعور، فما عمالك أن قال: "أكاد أجنّ لأنني لا أستطيع تفسير ظهور مثل هذه الأعضاء المعقدة التركيب عن طريق المصادفات".

إن الجمال والدقة الموجودة في تركيبني لا نظير لها في أي آلة تصوير... إن نظام عملي مرتبط بالخصائص التي وهبها الله ربنا للضوء وبقرائنه. لذا فقد درستُ وقمتُ بكيفية عملي والمقاييس الموجودة عندي وقمتُ بصنع أجهزة تصوير (كاميرات) بسيطة في البداية ثم نجحتُ في صنع كاميرات جيدة وممتازة. ولكن إياكم ومقارنتي بهذه الكاميرات لأن النتيجة ستكون عجلة لكم، فإن أفضل كاميراتكم تُعدّ لعبة أطفال بسيطة بالنسبة إليّ. وكانت الكاميرا الأولى البسيطة التي صنعتُها عبارة عن صندوق خشبي

الإنسان، بل وُزعت بشكل مذهل ودقيق في أماكن خاصة في الرأس الذي هو أية من آيات الفن. فمراكز الحواس كالرؤية

والسمع واللمس والتذوق والشم، وكذلك مراكز السيطرة على الحركة موجودة في رأسك. وقد تم ربط هذه للمراكز الموجودة في رأسك داخل الدماغ الذي يعد أعقد جهاز نعرفه في الكون، بجميع أعضاء الجسم الأخرى من خلال منظومة عصبية. لذلك فإن منطقة الرأس منطقة في غاية الأهمية. ولكونها تحمل تحملاً نفسية وغالية فهي مثل دكان مملوء بالتحف والجوهرات وهي منطقة حساسة ومعرضة للأذى وللخطر. فإن دخل مسمار في رجليك فستألم، ولكنك تستطيع معالجة هذا الجرح دون أن تصاب بضرر كبير؛ أما إن دخل مسمار في أي عضو من أعضاء الرأس فسيولد نتائج خطيرة تتراوح بين فقد ذلك العضو لوظيفته والموت.

نعمة البصر

وكما فهمت من هذه المقدمة فإن منطقة الرأس هي مركز الوظائف الحيوانية ومركز اللطائف الإنسانية القائمة على هذه الوظائف. وعند ذكر منطقة الرأس أتبادر أنا (العين) إلى الذهن في الهلّة الأولى. لماذا؟ لأنك لا تستطيع قراءة هذه السطور أمامك إلا بواسطة، ولا تستطيع رؤية ومشاهدة جميع أنواع الجمال التي يحمل بها الكون إلا بفضلني.

فلو لم تخلقني الله تعالى ويضعني في تجويفي في الرأس لما عرفت شيئاً لا عن الضياء ولا عن الألوان ولا عن الأزهار والورود ولا عن جمال الابل. ولولا لي لخت من المشي خطوة واحدة، لأنك لا تستطيع رؤية الأرض التي تلوها. فعلمية الرؤية لا تصل إلى دماغك ولا تتم إلا بواسطة، ولو لم تخلقني الله تعالى وتخلّق أعضاء الحس الأخرى لما وصلت الإنسانية إلى المستوى الحالي للعالم، بل لبقى دون هذا المستوى بكثير، لأن أهم طريق للحصول على العلم يمر من خلال الأعضاء السليمة للحواس، ولا يمكن الوصول إلى معرفة خصائص الأشياء وتسميتها إلا بواسطة، حيث يمكن آنذاك تسجيلها وتثبيتها ووضعها في صيغ معادلات وقوانين.





مغطاة بقمش أسود، واقتضت ١٧٥ سنة على هذه الكاميرا البسيطة، وعمل مئات وآلاف الفنيين والمهندسين في تطوير الكاميرات طوال هذه السنوات. وأخيراً نجحتم في صنع كاميرات جيدة ومعقدة مثل الكاميرات التلفزيونية والكاميرات الرقمية. فهل يستطيع أحد أن يدعي بأن تلك الكاميرا البسيطة التي كانت عبارة عن صندوق بسيط وعدسة تطورت تلقائياً وانقلبت إلى كاميرا حديثة متقدمة؟ وهل يمكن عزو جهود المئات من العلماء الذين استعملوا تراكمهم العلمي والفني لهذا الغرض إلى المصادفات العشوائية؟ وهل يمكن أن تتطور عيون حيوان رخوي أو عين حشرة إلى عين إنسان؟ طبعاً يستحيل هذا. ولكي تدرك هذا جيداً وتفهمه، عليك أن تملك بعض المعلومات عن تركيبي وطبيعة بُنيّتي على المستوى الجهري.

تركيبي العجيبة

أنا على شكل كرة وأملك بنية قوية ومتينة ومرنة في الوقت نفسه ومركبة من طبقات عدة وأشبهه كبسولة مسدودة. يبلغ قطري ٢.٥ سم. وفي قسمي الخارجي يوجد غشاء صلب أبيض (sclera). ويسم حفظي وورقاني بطبقة متينة مركبة من ألياف رابطة كثيفة. ويوجد تحت هذه الطبقة غلاف العين المشيمي (choroid)، وهو عبارة عن طبقة تنتشر فيها كشبكة الأوعية الدموية التي تقوم بتغذيتي. وفي نهاية القسم الداخلي توجد شبكية العين (retina) وهي من أهم مكوناتي. وتحتوي على المستقبلات الضوئية. وتحوي كل طبقة من هذه الطبقات على طبقات فرعية ولكل منها وظيفة خاصة، ولكني لا أريد هنا الدخول إلى التفاصيل.

والطرف الأمامي من بُنيّتي الكروية عدّبة بعض الشيء فهو الأمام والقسم الوسطي من الطبقة الصلبة الموجودة في الأمام تُحل شفافاً لكي يسمح بمرور الضوء من خلاله ويدعى القرنية (cornea). وتغلف طبقة من غشاء مخاطي (mucosa) الجزء الخارجي من هذا القسم الشفاف لكي تمنع جفافاً وهو غشاء مخاطي موجود في باطن الجفن.

ولكي يتيسر جمع أشعة الضوء في بؤرة واحدة فقد زيد في خدب القرنية في القسم الأمامي منها أكثر من المناطق الأخرى.

ويوجد خلف هذا القسم المخدب غرفة صغيرة وعدسة تقوم بفضل هذا القسم عن الغرفة الأمامية الكبيرة. وهناك سائل شفاف في الغرفة الصغيرة الموجودة بين العدسة والقرنية، يضفي عليّ اللون. وهو القرنية أو حدة العين التي تبدو كقطب أسود. وتركيب قرنية العين (الخدقة) من عضلة خاصة تستطيع التمدد والانكماش لضبط بذلك مقدار الضوء الداخل من خلال الثقب الموجود في وسطها. فعند اشتداد الضوء تنكمش لمنع دخول ضوء أكثر من المطلوب للحلولة دون تضرر الشبكية وخدشها، وعندما يقل الضوء تفتح وتوسع للسماح بمقدار أكثر من الضوء الساقط على الشبكية لكي تتم عملية الرؤية بشكل أفضل.

تقع الأربطة التي تمسك بالعدسة في مكانها وكذلك العضلة -التي تقوم بتغيير شكل العدسة لتغير مساحة البؤرة وضبطها- أمام الطبقة التي توجد فيها الشعيرات الدموية. وعندما تنظر إلى القريب أو إلى البعيد فإن أحد العوامل التي تضبط مسافة البؤرة بشكل صحيح هو تغيير سماك العدسة، وتقوم بهذا العمل الأربطة الماسكة بالعدسة حيث تنكمش وتبسط حسبما يتطلب الأمر.

وتوجد خلف العدسة الغرفة الكبيرة (الغرفة المظلمة) المملوءة بسائل حليبي نصف شفاف. وبفضل كثافة السائل الزجاجي نصف الشفاف الذي يملأ هذه الغرفة وبفضل الضغط الذي يولده هذا السائل يأخذ شكلي الكروي متانة وقوة أكثر. وتوجد في الطبقة الشبكية خلف هذه الغرفة المظلمة خلايا الحُصَيَات الحساسة للضوء وهي بشكل أنابيب ومخاريط. وتسقط الصور التي يشكّلها الضوء الداخل من خلال القرنية والعدسة -الموجودة في الأمام- بشكل معكوس على الشبكية. وتوجد المستقبلات الضوئية (الخلايا الضوئية) بشكل كثيف في الثُقرة أو الحفرة



الأنف، وهكذا يتم تنظيف هذه المنطقة كذلك.

وكلما زاد عدد أجزاء أي آلة أو جهاز كلما زاد احتمال عطبه. فإذا علمت أنني أتكون من عشرات الأجزاء، وكل جزء منها مكون من ملايين الخلايا، وهذه الأجزاء تكون منظومة تعمل بتلاؤم تام وبديع، علمت أنه من الممكن وقوع عطب في أي جزء من هذه الأجزاء احتمال وارد. ولكن خالقنا تعالى صاحب القدرة اللامتناهية وضعنا في رؤوس الملايين من بني الإنسان لتنوير عالمهم دون أن يظهر أي عطب عندنا في أغلب الأحيان.

أحيانا تظهر بعض الأعطاب والأمراض عندنا لكي يرينا الله تعالى مقدار عجزنا وضعفنا. ولي نصيب أيضاً من هذه الأعطاب، ومن ذلك العُطب الذي يصيبني في موضوع انكسار الضوء وفي مجال رؤية البعيد أو القريب. وتستطيعون أنتم الآن تعديل هذه الأعطاب ببعض العدسات، ولكن من الصعب في معظم الأحيان شفاءً أو علاج معظم الأعطاب التي تصاب بها خلايا مستقبلات الضوء.

ويجب أن يكون ضغط السائل الموجود في الغرفة الكبيرة متوازناً أيضاً. فإن زاد هذا الضغط حصل صداد شديد ويطلق أطباؤكم على هذا اسم "كلوكوم". فإن فقدت العدسة شفافيتها فهذا يعني حصول "عتمة عدسة العين (cataract)". ثم هناك أمراض عديدة تصيبني من جراء الالتهابات التي تسببها بعض البكتيريا والفيروسات، ولكن خلايا منظومة الدفاع الموجودة عندك تستطيع -بإذن الله تعالى- التغلب على هذه الجراثيم. وهناك أمراض أخرى مثل مرض السكري ونقص فيتامين A، تؤثر في تأثيراً سلبياً، وتصلب الشرايين، وتؤدي إلى الإخلال في وظائفه، ويؤدي هذا إلى مشاكل كبيرة لك في حياتك.

يا عبد الله! أستطيع أن أحدثك عن نفسي بصفحات وصفحات، ولكني لا أود أن أشغل ذهنك بمعلومات عميقة في التشريح والفيزيولوجيا؛ لأن غايته الرئيسية هي إظهار الصنعة الإلهية البديعة الموجودة في كل عضو من أعضائك، وإظهار حكمته الدقيقة، ومساعدتك في الوصول إلى مستوى من الفكر بحيث تقوم بشكره وحمله. وما أسعدني إن نلحت في هذا.. ■

(٥) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

المركزية حيث تشكل

أوضح الصور هنا.

وتشكل صور الأشياء هنا لا يعني رؤية

تلك الأشياء بعد، لأن إدراك الصور ومشاهدتها فعلياً

لا تتم إلا بعد وصول هذه إلى المركز البصري في

الدماغ، وإثارتها لمجموعة الخلايا الخاصة. ونحن نطلق

اسم "الرؤية" على هذا الإحساس أو الإثارة المتولدة هناك.

إن سرعة التفاعلات الكيميائية والكهربائية التي تجري في هذه

الخلايا نتيجة لتأثير الضوء سرعة كبيرة جداً بحيث يدهش العقل

منها. إن الإشارات الكهربائية المتولدة في خلايا المستقبلات

الضوئية (نتيجة لتأثير الضوء) تنتقل بواسطة العصب البصري إلى

الدماغ حيث تتم عملية الرؤية هناك. لذا فإنني أعّد واسطة فقط

في عملية الرؤية.

التدابير المتخذة لحماية

ونظراً لأنني عضو حساس لا أتمتع بأي ضرر فقد حفظني الخالق ووضعني في تمويفين موجدتين في جمجمتك؛ أي وضعني ضمن علية صلبة وأمنة جداً، تتألف من الفك الأعلى، والعظم الوجتي، والقسم الأسفل من العظم الجيهي، والعظم الدمعي، والعظم المصغوي (عظم تمويف الأنف)، والعظم الكرواني. ولا تقتصر الإجراءات المتخذة لوقائي على هذا فقط، فقد جهزي الخالق بعفنين، الجفن الأعلى والجفن الأسفل، وهما يغلقان بشكل آلي عند ظهور أي خطر من جهتي الأمامية. وبفضل افتتاح جفني وانغلاقهما في فترات معينة تتم عملية تنظيف طبقتي الشفافة الأمامية (القرنية). وبشبه هذا قيام منظفات الزجاج الأمامية لسيارتكم بعملية التنظيف لها. وأجفاني ليست عبارة عن جلد اعتيادي ذي طيات، فهناك منظومة كبيرة من الغدد تقوم بترطيب القسم الداخلي للأشفا على الدوام وتدهنه ولصق ذرات التراب ببعضها وتنظيفها. وعندما تغرن وتتأثر كثيراً تقوم الغدد الدمعية الموجودة بيني وبين الأنف بإفراز الدموع التي تملأ في بادئ الأمر كيس الدموع، ثم تندفع بواسطة قناتين وتقوم بغسلي جيداً. وعندما تبكي كثيراً يقوم كيس الدموع بإرسال الدموع الفائضة عن طريق قناة ثالثة إلى



وا ابناه... لتكن أنت الفداء!

✦ نور الدين صواش ✦

ج

كل ليلة، ولن نسمع النغمات الحزينة في المذياع. ستهبّ نسائم السعادة والأمل على ربوع قلبها بعد قدوم ولدها العزيز.

.....

سمع دقات خفيفة على الباب. ها هو الشاي قد حضر. ارتشف رشفة، ثم عاد إلى ذكرياته الحبيبة، ارتسمت صورة أمه أمام عينيّه. كم كانت سعيدة عندما قدّم لها شهادة الجامعة، تفرقت عيناها بدموع الفرح، وضمّته إلى صدرها بحنان "أخيرا عدت إلى أمك يا ولدي".

لكن كيف يقول لما إنه عُيّن مدرسا في إحدى دول آسيا الوسطى التركية. ألن يحطم ذلك كل أحلامها؟ عليه أن يغيرها، ولكن كيف؟ وهل يحمل قلبها الرقيق الشرح؟ إلا أنه لا بد من ذلك. لا بد أن يُقنع والدته بأن آلاف الأعين تنتظره في تلك الأراضي البعيدة. عليه أن يسرع لتسقي تلك البقاع الظامئة مع من ذهبوا قبله من الشباب الثريوين الأطهار... عليه أن يذهب حاملا معه رسالة الرحمة والحب لغيرسها في القلوب الضائعة الخائرة... عليه أن يذهب حاملا معه القلم والكتاب والإيمان والفضيلة. لا بد من تلبية نداء "الأستاذ المربي" الذي نشئ بأفكاره النبيلة. كم سكب "الأستاذ المربي" من الدموع من أجل أن يعث الروح من جديد في تلك الأراضي الميتة، وكم

جلس على مقعده وراء المكتب وراح يفكر بالشخصيات التي سيدعوها إلى حفل التخرج للمدرسة؛ ينبغي أن يكون حفلا رائعا يترك في نفوس الحاضرين أثرا لا يُنسى.. شرع بكتابة أسماء المدعوين على بطاقات الدعوة: "السيد رئيس الوزراء الموقر"، ثم كتب أسماء أصحاب المناصب الأخرى واحداً بعد الآخر. ليس بالأمد البعيد، بل منذ بضعة أشهر فقط فاز تلاميذه بميدالية ذهبية في مسابقة الفيزياء الدولية. منح نفسه فترة استراحة قصيرة ليشرّب كوبا من الشاي، وما لبث أن اجتذبه أطراف من الذكريات.

كان قد تخرّج من الجامعة بتقدير ممتاز. كم كانت أمه سعيدة بنجاحه، أمه التي انتظرت ذلك اليوم بفارغ الصبر منذ سنوات ليُقب إلى جانبها ويخفف عنها آلام الوحدة. فمئذ أن ارغى والدّه إلى الرفيق الأعلى وهي تعاني من قسوة الوحدة في منزل ولدها الأكبر بسبب المعاملة السيئة التي تلقّاها من زوجته. لكنها دفنت آلامها في قلبها واعتصمت بالصبر الجميل منتظرة اليوم الذي نزول فيه كل هذه المآسي. "ولدي مثال للوفاء، وسوف أزوجُه بفناء جميلة ومؤدبة، بعدها نعيش معا حياة سعيدة هنيئة". كل شيء سينغير بعودة ولدها. لن تتساقط براعم الأمل مبكرا بعد اليوم، ولن تحترق دموع الحزن من عينيها، ولن تنادبها نجوم الغربة في السماء

أُعني عليه وهو يدعو إلى الهجرة لنشر نور الحياة في تلك الديار المظلمة. لا بد من الهجرة... أم يهاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرجاء العالم لنفس الغاية النبيلة؟ استغرق في تفكيره ثلاثة أيام. كيف يقول ذلك لأمه يا ترى؟ حاول مرّات ومرّات، ولكن بدون جدوى. الأيام مرّت بسرعة وموعِد السفر أصبح وشيكاً. غداً يسافر إلى إسطنبول ومنها إلى آسيا الوسطى. جلس إلى جانبها برفق، ونظر إليها بجمان مشوب بشيء من القلق. أحسّت بأن شيئاً خطيراً سيقوله، أشرق إلى الأرض وقد اغرورقت عيناه بالدموع وعلقت كلماته في حلقه، ثم ارتمى في حجرها يبهشاً بالبكاء "أُمي الحبيبة، يا أعزّ إنسان في الوجود... أمّاه...". رفع رأسه ونظر إليها ملياً ثم قتم بعبارة متقطعة "عليّ أن أذهب يا أمّاه... عليّ أن أذهب إلى آسيا الوسطى...".

لم يستطع أن يقول سوى هذه الكلمات... خيم على الغرفة صمت كتيب، بدأت الأم مذهولة غير مصدقة... لكن بعد لحظات صحت من دحوشها، وربّت على كتفه بجمان وسط دموع ساخنة تتحدر على خديها. كانت "صبرية هانم" من الذين يعرفون معنى الرسالة التي يودها ولدها ورفقه. قالت وهي تمسح دموعها "صحبتيك السلامة يا ولدي، وسأصبر على فراقك وعلى إساءة زوجة أخيك، فاطمة بالآ".

في المساء الذي دعت فليدة كبداه إلى إسطنبول سكبت دموعاً غزيرة. كانت قد جهزت حقيبتها بنفسها، وأعدت له شيئاً من الطعام ليأكله أثناء الطريق. لقد تركها ودعية عند الله وليس عند زوجة أخيه. ظلت تلوّح له يدها حتى غاب في الأفق البعيد. وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يركب الطائرة اتصل بها لأخر مرة. كانت تكي... لكن من الفرح هذه المرة "أدهب يا بني رافقتك السلامة، لقد حدث شيء لا يصدق! هذا الصباح جاءني زوجة أخيك وارتمت بين يدي بأكية تعتذر لي وتطلب مني السماح: أروحك سامعيني يا أمي سامعيني... قالت أنها الليلة الخيب المصطفى ﷺ في المنام وحذّرها بشأن طلب منها ألا تحزنني... فلا تقلق بشأن يا بني، اذهب صحبتك السلامة...".

.....

وبعد بضع سنوات عاد لزيارة أمه فزوجته من فتاة تناسبه وتُسعد. قالت "حسبي أن رأيتك سعيداً يا ولدي.. ولكن إذا رزقك الله ولداً فلا تحرماني من رؤيته، لأن قلبي لن يصبر على فراقك ما وفراق حبيبتي بعد الآن". وفي العام التالي جاؤوا

لزيارتها وقد بلغ الطفل شهرين من العمر. مضت الأيام بسرعة... بأفراحها ومأسيتها... قضى أعواماً طويلة في البلاد التي اعتورها وطنه الثاني... تعلّم في هذه الأراضي النائية معنى الحياة، ومعنى خلة الإنسانية، ومعنى غاية الوجود، ومعنى العمل لكسب مرضاة الخالق سبحانه: أحبّ الناس في الله وخفق قلبه لله... وبعد أن أصبح مديراً لعملي بجمان، وبسهر على تعليم تلاميذه وتربيتهم. لقد كانوا كل شيء بالنسبة له في الحياة، فبال ثقة أهل البلد، وحصلت مدرسته على جوائز عديدة... تنفّس الصعداء... "الحمد لله، كل ذلك من فضل ربي".

كان التلاميذ يلعبون مَرَح في ساحة المدرسة وأصواتهم الجميلة تملأ الفضاء. ولكن... ما تلك الأصوات المرحية تحولت فجأة إلى صرخات مدوية!..

سمع طرقات قلقة على الباب مع صوت مدعور لتلميذ خائف "استاذ!.. التحدّاه!.. انتفض من مكانه، "استاذ!.. استاذ!.. أحد التلاميذ... سقط من الطابق الثاني!..."

أظلم العالم في عينيه، شعر كأن الدنيا تدور، انحلت مفاصله وكاد يقع على الأرض، لكنه استجمع قواه وخرج من الغرفة مسرعاً يرتطم بجدران المدرسة. أخذت هواجس الرحمة والقلق تصطرع في داخله. "يا إلهي!.. كيف حدث ذلك؟ ماذا لو مات الولد؟ يا رب، لقد وثق الناس بنا ومنحونا بهم واتمّنوا على أبنائهم فلم تحبّ ظنهم. ماذا لو أصاب المسكين مكروه؟ ماذا أفعل لو أوقفوا عمل المدرسة بحجة الإهمال... يا رب احفظنا..."

أسرع ناحية المكان الذي تجتمع فيه التلاميذ. وما إن رآه حتى أفسحوا له الطريق، وإذا بكبد صغير وقد ارتمى على الأرض دون حراك وسط دماء تسيل من رأسه. مَد يديه المرتعشتين بسطو، واحتضن الطفل بجمان، ورفع رأسه بعناية... فعرقه... "الحمد لله!.."

انعدرت الدموع على خديّه بلا إرادة منه.. شعر كأن شيئاً ما يعترض قلبه... ضمه إلى صدره بحمّة وتَمَسَّه بأمّ "ولدي!.. نعم... إنه ابنه وفليدة كبداه... جس نبضات قلبه الصغير ولكن..."

في تلك اللحظة كانت صبرية هانم مشغولة بمحاولة ثوب لحفيدها الخيوط... لم تكن تعرف بأقول بجمان المتألم في سماء الغربة... كانت شاردة الذهن... وفجأة وحزت الإبرة أصبعها فصرخت بأنين صامت "اه... اه...".

(١) كاتب تركي. قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى. وهي مترجمة عن مجلة "سيزيني" التركية بصرف.





الاغتراب الحضاري لدى المسلم المعاصر

♦ أدب إبراهيم الدباغ ♦

إلى حياة إيمانية سليمة، إن كانت اليوم مستعصية على الفهم بعض الشيء، إلا أنها توشك غداً أن تصبح الروح الذي يحيي مَوَاتَ الإنسان، وبوقظ قلبه وبير عقله.

والغربة في روح المسلم وعقله، إنما هي نتاج مصارعته للتمزق والانشطار بين الوجود والنفسي، بين وجوده الإيماني وعدمية هذا الوجود، بين سلبيات الدنيا ولاشبيئيتها وإيجابيات الآخرة وبقين حقيقتها. وهي ثمرة ذلك القلق الممض بين أن يكون أو ألا يكون، وهو -بعد ذلك- قلق بحصب الفكر، وبغني الوجود، ويفتح منافذ الخيال والوجدان على حقيقة الإنسان، وهو قمين بنفسه المتميزين من رجال العقيدة والإيمان.

هاجس مقيم

وتظل هذه الغربة هاجس المسلم الدائم، وقدره وقضاؤه، يلازمه ولا ينفك عنه ما دام يدرج فوق آدم هذه الأرض... صحيح أنه

لا أوْدُ أن أخذش حِسَّ الفاوِل والأمل في نفوسكم الكريمة بمحدثي عن غربة المسلم واغترابه الحضاري في هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدمسوس

على الدنيا في حين غَزَّة من أهلها، ليهدم بمعاوله كل منارات الهدى، ويطمس على كل ما يمكن للجنس البشري أن يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير؛ فالنفاوِل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسر استعصامهم على ضريات الزمن الوجيع. وهو النور المسكوب من وجدان الغيب ليشرق بسنانه فوق ليالي البأس والحزن والألم، لذا أبادر فأقول: إن اغتراب المسلم وغربته ليسا دليل ضعيف دائماً، وليسا دليل رغبة بالانكفاء والانقصام عن عالمه المحبط به، بل هما -في كثير من الأحيان- علامة على الصحة والقوة، وآية على الائتلاف الحميم بينه وبين إيمانه وعقيدته.

فكلما زادت غربة المسلم، وعمق اغترابه، كان ذلك إشارة

لا

جوانب الوجدان البشري. غير أن الشعور بالاعتراب الفكري والروحي وعلى الرغم مما يخلقه من آلام وأحزان، يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط خلايا الفكر والروح. فالإبداعات الفكرية الإنسانية مدبنة إلى هذا الشعور بالاعتراب عند المبدعين، وإحساسهم بألم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة مما يملكون من فكر لم تنهأ الأوطان والأزمان بعد لقبوله والتواصل معه، إلا أنهم يحضون في أداء رسالتهم على أمل أن يأتي ذلك الزمان الذي يُحسن الفهم عنهم والتلقي منهم.

الشتاء الحضاري

غير أنه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاء الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعد عقلاً فاعلاً؛ إنه في حالة استرخاء دائم، ولم يعد العقل المستنير المشدود اليقظ، والمستعد دوماً لالتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة.. لم يعد عقلاً مغامراً يستهويها الجهور، ويفتته المستور، حتى وكأنه يناف الخقائق ويستهلها. فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإنسانية وحدها مهتدة باليسب والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهتداً بالشلل والجمود.

إن دم إسلامنا الطيب الظهور يسري في عروقنا، ولكنه دم حامل هامد، به حاجة إلى "عملية قص" لكي يتجدد ويستعيد حيويته ونشاطه. ولن يقدم على عملية القصد هذه إلا واحد من مفكرينا، ينشئ قلمه، ويبيع منه مشروطاً حادثاً بغوص عميقاً في عقل المسلم وروحه ليحرك سكونهما، ويستنقز هودهما، وهذه السبيل التي لا مناص منها لكي تنشط عقولنا، وتتجدد قلوبنا وأرواحنا. وهذا الفكر آت لا أشك بحجته، لأن زلزالاً فكرياً رهيباً يعصف اليوم بعقول مفكرى هذه الأمة، ويوشك أن ينجلي عن منجم فكري عظيم يحد المسلمين بكل نفيس وجديد من الأفكار.

الدين والحضارات

فمن المعلوم أن "الدين" هو الذي يقود مسيرة حضارات في فجرها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها وعلا ضحائها ودلفت إلى ظهيرة عمرها، جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثناً يتعبد له الناس من دون الله تعالى.

وقد فجر الغرب اليوم حساسيات الإنسان إلى آخر مداها

يسكن الأرض ويدرج فوقها، إلا أنها ليست الخط الذي يمكن أن يحيط رحانه عليها إلى الأبد، ولا المكان الذي تنتهي إليه آماله، ولا الوطن الذي يملأ عليه خياله، أو يحتوي عظمته روحه.

إنه يمكن أن يملك الأرض، وأن يعمرها، ويحكمها بالعدل، ويقم فوقها شرع الله... غير أنها تبقى ملك يمينه؛ يأخذها إلى الأقوم والأحسن والأفضل بينما يظل قلبه مغلقاً دوماً، فلا يخلد إليها، ولا يطمئن لها، بل يحس بالوحشة والخوف منها، لأنها موطن الفناء والموت والعدم. ففي كيانها، وفي كل ذرة من دمه نزوع إلى عالم هو الوجود كله، ووطن هو الخلود كله، وأرض هي الحياة كلها، لا يتهددها موت ولا يكتنفها زوال أو عدم... إنه ذلك العالم القدسي الذي أبعد عنه أبوه آدم عليه السلام. وعالم أن تستبقت بذرة الموت والعدم فوق أرض الحياة والوجود، فنزل الأرض أم الموت والعدم، لأن شبيه الشيء منجذب إليه، فصارت الأرض دار غربته، ووطن وحشته، لا يسكن إليها ولا يطمئن بها.

وقد أورت أبنائه من خاصية ذاته مراوة الغربة، ولوعة الحنين إلى الوطن الأول. فذاكرة الإنسان الباطنة وحافظه وجدانه، تخفي في تلافيها جلود ذلك الاعتراب الآدمي، وأصول ذلك النزوع إلى عالم الأب الأول. وما يثير الدهشة أن يغدو ترق "آدم" عليه السلام وزوجه إلى البقاء الدائم والخلود الأبدى -وهما في دار الخلود والبقاء- المنفذ الذي نفذ منه الشيطان إليهما بوسسته: ﴿وَمَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠)، مما يدل على أن الآدمية مفعولة على هذا النوع، وأن في أصل خلقه كل آدمي نزوعاً غامراً إلى البقاء والخلود، ففعلت وسوسته معهما فعلها، ففقدوا بذلك سر الخلود، وسلباً لكسر الحياة.

النزوع إلى الخلود

إن ما يعتلج في نفوسنا من ترق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج علمنا -أكبر من كل دليل وأعظمه- لأن الإنسان -كما هو معلوم ومشهور- لا يشاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب. وسبطل القلق الحاد يعوتر "النفس الإنسانية" ويورق وجودها، بسبب ذلك الإحساس المبهم بالوحشة والشعور الغامض بالاعتراب في هذا العالم. وهو حس عميق الغور في النفوس لا يسهل الخلاص منه أو الانفكاك عنه، لأنه يشكل جانباً مهماً من



وطافها، وفجر مع ذلك حسَّ الأرض والسما، وأثار خفايا الأرض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تنزل وتلقي بأنفائها وأسرارها بين يديه ليتبي من عناصرها مدينة الحسِّ المفتقرة في بعض جوانبها إلى دفع الروح، وشفافية الدين والإيمان.

حضارة الإسلام

أما حضارة الإسلام فهي وحدة واحدة، تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها. فالروح والعقل والحس يتداخل بعضها في بعض، وتمشي جميعها جنباً إلى جنب في جميع مراحل تطورها، فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناهج التكليف في الدنيا، والمسؤولية في الآخرة. فحضارة هذا شأنها وإن غابت اليوم عن حسِّ المسلم، ولم يعد يتلمس وجودها في واقع حياته، إلا أنها حضارة قائمة في عقله وروحه، شاخصة في خياله وذاكرته، لم تقفر سماء ذاته من خفقات نبضها، وومضات كواكبها. وعلى الرغم من أنه يعاني اليتم، وكوالح الاغتراب، إلا أنه سيبقى متشبهاً بها، متعلقاً بأمراسها. ولن يغيره أحد بالتكررها، والانسلاخ عنها، لأنها تترج بأجزاء نفسه، وتحمي في مجاري روحه.

قوة الفكر

إن قوة الفكر الذي تحتاجه هذه الحضارة لتنهض من جديد، فمين يقول عظماء الرجال ممن عانوا الاغتراب الفكري، ووقفوا على مشارف الخطر الخدق بها من خلال البين الفكرية التقليدية المكرورة، والتي فقدت وهجها وحرارة تأثيرها. فظهر هذا الفكر بين ظهرائنا هو منعطف تاريخي مهم في حياة الإسلام والمسلمين، والسعي إليه فرض عين على كل صاحب قلم يحرص على وجودها كما يحرص على ماء عينه. وإذا كنا نصر على أن يكون للفكر الإسلامي مكان مرموق في عالم اليوم، فلا بد أن ينجم من بين فحول مفكرتنا فكر قروي جديد يتسم بالأصالة والعفوان، ليغزو كيان المسلم المعاصر وهو على أبواب العقود المتبقية من القرن الخامس عشر الهجري.

إن التجديد الذي تحدث عنه الأثر النبوي الشريف والقائل بأن الله تعالى يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد هذا الدين، هو أحد مفاحر ديننا، بل أعظم مفاحره. ففيه إشارة إلى ذلك الالتحام الأبدي بين ديننا وصورتي الزمان والمكان، وهو سرُّ خلود هذا الدين وبقائه ما بقي الزمان والمكان.

خصائص هذا الفكر

وليس من هي هنا أن أستطرد في وصف هذا الفكر وما ينبغي أن يكون عليه، إلا أنني لا أرى ما يمنع من الإشارة إلى بعض ما نريده منه، لاسيما وإنه قد وُضعت منه ومضات عند البعض من مفكري الإسلام وعلمائه المحدثين؛ فريده كالعاصفة المنطلقة من سجنها يوظف هاجع الأفكار في جميع الأدهان، ويعصف بقبور العقول ومذاهب النفوس لتذفق بأموات أفكارها وظلمات أرواحها بعيداً عنها... ونرجوه فكراً كوثياً شمولياً يربط ربطاً محكمًا بين حقائق الدنيا وحقائق الآخرة، ويصل ما بين قلب الكون وقلب الإنسان... وتمناه حاراً دافقاً يهدر بالأفكار كما تهرس شلالات الطبيعة، ليس فيه برودة "الأكاديمية" وجفافها، ولا ضبابية الإنشائية وهويماتها، وإنما هو مزيج من قبض الروح ودفقة، ووقدة القلب وضرامه، وحرارة العقل وجلاله، إنه باختصار فكر قرآني يمنح الإنسان القدرة على فضِّ أختام العالم، وحلُّ لغز الوجود، وتمزيق ما شجبت به الحياة من قُطُ النواميس والسنن وقوانين الأسباب والمسببات، فيأخذ بيده متحرراً مغازات هذه الحجب ليقفقه بين يدي خالقه وبارئه، تاركاً العوالم كلها وراء ظهره في عبودية خالصة مخلصه لرب العالمين.

محمد ﷺ الهادي والدليل

والله ﷻ قد دلَّ على وجوده بمجموع هائلة من الآيات الآفاقية والأنفسية. إلا أنَّ أعظم آياته، وأكثرها ظهوراً، وأهمها إعجازاً بعد القرآن الكريم، إنما هو سيدنا محمد ﷺ، بصفا جوهره، وكريم عنصره، وعظم خلقه. فهو المعنى الجليل الذي انتدبت البشرية إلى فهمه، وهو القلم الذي عَلم الإنسان ما لم يعلم من معاني الإيمان والتوحيد، ووضع النقاط المضيئة فوق حروف الوجود لكي يمكن قراءته والتعرف على معناه ومغزاه. فما من قلم في يد مسلم إلا وهو يستمد فكره من هذا النبي الأُمِّي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويتعلم منه، ويسترشد به، لأنه مرآة القرآن الكرى، يعكس على العالم أفكاره وآياته ومعانيه عبر حركة الزمن المتجدد. وهو ﷺ بين الأنبياء والرسل أعظم مجدهم، وأكثرهم بشاعاً فيما انتدبوا له من مهام؛ فقد جدد ما رث من تعاليمهم، وتخلَّى من أفكارهم، وحُرِّف من رسالاتهم، وهو الذي أحيى عقيدة التوحيد الخالص وبعثها من رسمها، وأناط بها خلاص الجنس البشري من الشقاء الأبدي.

فالاسلام -غرفاً وسنة- وإن كان قد نسخ شرائع ما قبله، إلا أنه -بجد ذاته- بتجديد لأصول هذه الشرائع وأساسياتها التي هي محور كل دين إلهي. فالتجديد إذن قد بدأ في تاريخنا بنبينا محمد ﷺ ولا ينبغي أن يتوقف في أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الجامدون الخائفون

وكل ما هو غير مطروق، ولا مألوف من الأشياء والأفكار الجديدة يتوجس من الجامدون خيفة، وكلُّ بحدِّ غريب في قومه ووطنه، منكر بينهم لا يكادون يفقهون عنه أو يسمعون منه، وقد عاش رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام غريباً في قومه بمكة ثلاث عشرة سنة، لأنه جاءهم بما لم يألفوا أو يعرفوا من الدين والإيمان. ومن هنا بات المسلم رهين غريبين، غربة مكانية حسية ورفها عن جدّه آدم عليه السلام، وغربة فكرية إيمانية ينزع فيه إليها عرقٌ روحي يمتدُّ جذوره عميقاً إلى غربة رسول الله المكيّة الأولى، وبين طوايا هاتين الغريبتين في وجدان المسلم، تشكلت بصمت قواه الروحية، وتسننكم كل شخصيته عناصر تفردتها وتميزها، لتصبح من بعد نوعاً إنسانياً منفرداً قبالة الكم البشري العادي. وهو وإن كان غريباً في نظر هذا الكم ولغزاً مبهمًا لا يعرف كيف يفسره ويفهمه، غير أنه مع ذلك يحسُّ بأنه يضرب بعسري في كل نفس، ويُمَتُّ بصلة إلى كل قلب، وربما رأى فيه تكفيراً واعتذاراً عن خلفه وعجزه عن التفرد والتميز.

فهو غريب لكنه مستطاب الغربة، بعيد لكنه أقرب ما يكون من الأرواح الخبيسة المعدّية في سجون أجسامها، وأصح ما يكون إلى أئين الإنسان وصراخه المفجع في دياجير الضلال، وأندى ما يكون على النفوس العطشى في تَلَأَعِ الموى الرهيب، وهو حاسة الأمة السادة التي تتلمس من خلالها درهماً إلى الصراط المستقيم، وهو بُعدُها الرابع الذي تنفذ من خلاله إلى أنوار روحها الموار يخسوال الإيمان الدفينة، وهو عقلها الذي يفكر لها إذا ما اعتلَّ عقلها، وداعت نفسها. كلُّ ذلك في إطار من جمال الروح، وجلال الفكر، وهبة النبيل والطهر، حين لكأنه بصفاته هذه أنفل من أن تتحملة طينة الأرض، وأوسع من أن تحويه دنيا الناس، وأشدُّ تماسكا وقوة من أن يجرفه رُبْدُ سيل العالم. ■

١٠ كاتب وأديب / العراق.

سفر وغربة

غريباً أتيت، وغريباً ستمضي...

راكضاً لاهثاً في دروب الحياة تجري،

مسافراً لا تني...

قلقاً لا تفتأ...

يحدوك من الغيب صوت،

ندى كالفجر... رحيم كفؤاً أم...

هلاً أتيت...

وبطل حناهِ تقيّات...





جماليات التفكير الإيماني

✽ أ.د. فريد الأنصاري ✽

في السباق ما يصرفه عن هذه الحقيفة. لكن لماذا التنصيص على الفردانية، أو الفنائية، بالضبط؟ لماذا كان ذلك شرطاً لتوقيع "التفكير"؟ إنه أمر عجيب.

العقل آلة تلتقط الحقائق، وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار. وإنما الذي يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (ص: ٣٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩). فإذا كان القلب محجوباً بمحجب المسادة والكثرة عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات. فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكير في القرآن قلبياً. ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف نظراً لرهبة القلب مما يحلله له العقل ويعرضه عليه من صور. وذلك نحو

من أسرار هذا الدين ولطائفه أن باب عقيدته هو التفكير. قال عز وجل في مخاطبة المنكرين عبر رسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (س: ٤٦). آية في غاية الجمال والسمو. وإلى أشهد أي مذ ذقتها وجدت أن بها بحراً من الأسرار التربوية لا يعلم مداه إلا الله. وإن شا لدوقاً وجدانياً خاصاً.

التفكير

أرأيت كيف أن الله تعالى يخاطب هؤلاء، بالقيام له، والتفرغ لشأنه، قبل الإيمان به؟ وذلك حتى يمكنهم من الوصول إلى حقيقة الإسلام، هذا الدين الذي هم له منكرون. وقد شرط الله عليهم شرطاً في كيفية القيام له: وهو الخلوة به وحده سبحانه. والعدد الوارد في الآية: ﴿مَتَى وُقُرَادَى﴾ على حقيقته، إذ ليس هناك



ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تمتها: ﴿وَمَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦)، وأظهر منه آية التفكير في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قَهْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١). إنه شعور الوجدان بول الحقيقة وعظمتها، ولذلك قلت "إن التفكير فعل وجداني في العمق".

وهو لذلك لا يقع من الناس إلا أحياء، وإن حكى عنهم بضمير الجماعة، كما في الآية الأخيرة، فإنما المقصود أنه يحصل ذلك منهم فرادى لا مجتمعين، كما يدل عليه أول الآية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٩١). فهذه صور تحيل على الناس وهم في شؤونهم الخاصة، بين منازلهم وأفرشتهم ونومهم وقِيَامِهِمْ. وأغلب ذلك كله أحوال فردية. الآية الأولى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ثُمَّ يَذْكُرُونَ مَا أَتَوْا بِهِمْ وَلَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِشَاءً وَمَا أَنتَ بِمُتَذَكِّرٍ﴾ (سبأ: ٤٦) نص في فردانية فعل التفكير. أما الثانية "مثنى" فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية. والمثنى في العربية ملحق بالفرد. وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة. ثم إن الفكر بين اثنين "مثنى"، وهي أشبه ما تكون بتحديث الفرد نفسه. أما فائدة ذلك فهي أن التفرغ ما عز وجل في خلوة، لا يكدر صفوها عليك أحد من الخلق، يتيح للقلب أن يتفاعل في صفاء مع معطيات الفكر، ويتوحد متلذذا بمواجيد الشعور بجمعة الله، وحقائق الكون الكبرى. ومثل ذلك لا يحصل في لفظ النقاش الجماعي، وضوضاء الجدل المتعدد.

رفيق النجوى

نعم رفيق النجوى، وهو الثاني (مثنى)، يكون معك على موجودة واحدة في التأمل، وتبادل المشاعر والمواجيد. تماماً كما كان النبي ﷺ يتلو لربه فرداً، أو مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه أحياناً، أو غيره من الصحابة الكرام. فإذاً تكون أبواب القلب أكثر انفتاحاً لتقبل ما يلقي عليها من واردات الحب، والشوق، والمعرفة الربانية.

وما يريد هذه الآية دقة فيما نحن فيه التعبير بـ"ثم" التي تعيد الترتيب. فكأنه تعالى جعل شكل التفكير ﴿مِثْلَىٰ خِزْفٍ﴾ هو الكفيل وحده سجاح عملية التفكير، ولذلك قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ فعل واحد لا ثاني له، كفيل

بأن يقود الإنسان إلى الحقيقة: التفكير. هل خلوت بنفسك يوماً؟ أو ناجيت رفيقاً لك في أمر الكون والحياة والمصير؟ عندما تمتد الفكر سائحاً في أفاضي الكون يضل وبته. وأنتى له أن يهندي في دروب ومسالك ينتهي الخيال ولا تنتهي منافذها؟! إذن يرجع الفكر منكسراً عاجزاً. وإن ذلك لعمرى هو الإسلام؛ الخضوع للعظمة المطلقة فوق الزمان والمكان، والاعتراف بالقصور عن الإحاطة؛ ولا بأي طرف من أطرافها. ﴿وَمَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣-٤). الرجوع إلى الصف الأدمي للانضمام إلى سلك "العادة الطبيعية"، رجوع في العمق إلى مقام الخدمة والعبودية. موجودة ليست في حاحة -حينئذ- إلا إلى الإفصاح والتعير: "لا إله إلا الله".

وهنا يكمل جمال الدين، الدفاء الحاصل عند الشعور بالانسجام مع سائر الخلق السيار، كل في سربه وفلكه: ﴿تَسَبَّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤). هذا التوحيد الكوني في التعبير، بل هذا التناقص الكلي في نفث المواجيد، عبر شتى ألوان العبادة، له ذوق "الأنس" الذي يملأ القلب نشاطاً وحياً للحياة الممتدة طويلاً وعرضاً.

التنافس في طريق الحقبة

التنافس هنا إذن هو في طريق "الحبة". الكل يحب، والحبوب واحد. تلك هي القضية. إذن أينما يبدل أكثر؟ وأينما يشكر أكثر؟ فهذا مجال الإفصاح عن مواجيد اللذة ملك القلوب ومالكها. وكلما كان الحب أصدق كان أكثر إذلالاً لصاحبه. ولكنها ذلة اللذة والمتعة العليا، والشعور بالراحة في سبيل رضى المحبوب، وينطلق السابق... وتلك لذة أخرى، لها قصة أخرى. الله! هذا المعنى العظيم الذي تنطلق منه ليقتر أنه "لا إله إلا هو". تدخل إلى ملكوته من باب "التفكير" بوجدان الحقبة الكبرى. ولكن كيف؟

لظالمنا كنت أفراً عن رواد الحب الإلهي، فكنت أعجب كيف يجدون هذه الموحدة، بهذا الشوق كله؟! فتفكرت دهرًا، فإذا الباب يفتح مفتاح "الربوبية": الله، هذا السيد العظيم هو الخالق لكل شيء من الجلائل والدقائق. وما أنت أبها العبد في ملك الله العظيم، الممتد بلا حدود، إلا ذرة من البلائين التي لا يحصرها



بالحب. وأن تعبر عن ذلك كله، يعني أن تقول: "لا إله إلا الله"، أي لا مرغوب ولا مرهوب إلا الله، ولا محبوب إلا الله، يملك عليك بجامع القلب والوجدان إلا الله.. هذا السيد الجميل، والملك الخليل، والرب العظيم الرحيم.

إن العبد المسكون بحقيقة "لا إله إلا الله" لا يملك إلا أن يتدفق منجرها إلى الله.. ثاماً كما تتدفق الأنهار سارية وسارية إلى مالكتها.. فأنه إذا أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أن "حي على الصلاة"، أو "حي على الفلاح"؟

طُوبَى الْحَبِّ إِنَّ مَسَّتْ قُوَادًا

جَرِيحَ الْوَجْدِ كَانَ لَهَا نُشُوبُ

وَهَلْ فِي الْعَاشِقِينَ الْغُرُغُصَى

يُنَادِيهِ الْحَبِيبُ وَلَا يُجِيبُ؟

يتخلف؟ كيف؟ والمسلم، إنما هو ذلك العبد الذي يحمل حمرة الشوق إلى الله.. يُسَبِّحُ الوضوء على المكروه، وينقل الخطى إلى المساجد يسري في الظلم، ويسرب في الطحير، متقبلاً بين حُرٍّ وَفَرٍّ، ويجاهد في سبيل الله.. ينثر روحه أزهاراً على الثرى، طمعا في رضى المحبوب، الذي تعلقت به القلوب. والمسلم هو ذلك العبد الذي فاض قلبه بحب الله؛ فلا يجد من سلوكه إلا مسكاً، ولا ترى من خطوته إلا كياسة وفطنة، ولا يلفاك إلا بالكلمة الطيبة والسريّة الحسنة.

الإسلام، هذا الجمال الإلهي العاني، دين ليس كأي دين. لكن... لو كان له ذوق... ذلك هو "الإسلام" دين الحية. وذلك هو المسلم السالك مدارج الخيين. وأنتى لمن حقق قلبه بلمسة الحب أن يكون شريفاً؟ الحب، هذا الشعور الغياض بالجمال، إذا خالط قلباً أحاله جداول من الإيمان واليقين، وأمرؤ كان ذلك شأنه لا يتصور فيه أن يوذى أحداً أبداً، لأنه لا يملك من المواجهيد في قلبه إلا الحب. وكل إناء يرشح بما فيه. إنه لا يملك إلا أن يملأ المكان بمواجهيد الحية، ورياحين الشوق في سيرة الوجودي إلى الله. ■

خيال، من الذرات السائرة في متاهة الكون الفسيح. ألم يكن ممكناً في قدر الله وقدرته تعالى ألا تكون أصلاً؟ إنها نعمة الخلق إذن، فأعظم بها من نعمة لا تخص حمداً ولا تحاط بشكراً، ولو عشت أعمار الخلائق جميعاً حامداً وشاكراً، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان: ١). لمسة "الحياة" هي النعمة الكبرى بعد الخلق.. ألم يكن ممكناً أن تكون حماداً؟ ثم إن حياة الروح أكثر هبة إلهية للإنسان.

تأملات تملأ القلب حيرة وعجبا. أن يكون بين الناس في ظل هذه الحقائق الرهيبة منكرون... عجبا.. عجبا! ولا يملك المتفكر في آلاء الله ونعماته العظمية إلا العجب.

أن تتفكر في جمال الإحسان الرباني، يعني أن تقع أسير أنواره، وحلال كماله، مؤمناً خاشعاً مثيلاً. ذلك هو سر الحبة، وهو المعراج السري لثقله الخيين السائرين إلى منازل الحبيب. قال بديع الزمان النورسي رحمه الله: "ما دام ذلك الحكيم المطلق سلطاناً ذا جلال بشهادة جميع إجرعاته الحكيم، وما يظهره من آثار جليلة.. ورثاً رحيماً واسع الرحمة بما يبدية من آلاء وإحسانات.. وصانهاً بديعاً يحب صنعه كثيراً بما يعرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقاً حكيماً يريد إثارة إعجاب ذوي الشعور وجلب استحسانهم بما ينشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة... فإنه يفهم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم أنه يريد إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات وإلى أين المصير؟" (١) فهو إذن "يعرف نفسه ويوددها، بمخلوقاته - غير المخلودة - ذات الرتبة والجمال.. ويوجب الشكر والحمد له، بنعمه - التي لا تخص - ذات اللذة والنفاسة.. ويشوق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته، بعبودية تتسم بالحب والامتنان، والشكر لزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية" (٢).

فعلا... إن الذي يشعر بالنعمة المسداة إليه يجد نفسه مطوقاً بحققها في الشكر، ولكنها نعمة أكثر بكثير من أن تخصي أو تحصر. فكيف تشكر إذن؟ هنا يملك القلب الشعور بالعجز والذلة والخضوع التام، وتلك هي "لا إله إلا الله".

"الله".. هذا الاسم الجميل كلمة تدل على الحياة العليا والنعمة الكبرى.. منه سبحانه تستمد الكيونة والحياة. وعطاؤه تعالى لا ينقطع أبداً، ولا يحصى عدداً. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحياة. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه

(١) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

المواهب

(٢) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان فاسم الصاخي، ص ٦٧٧.

(٣) المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان فاسم الصاخي، ص ٣٨٥.

مفهوم العولمة وتحليلها في ضوء الفلسفة الأخلاقية لرسائل النور



إن البشرية

بأكملها تعيش

١

اليوم أوضاعاً مرجحة ومندرة بكثير

أ.د. عبد العزيز بركات*

إلى فوضى كبيرة انعكست
على حياتنا المعاصرة وعلى واقعنا
حاضرنا وستعكس على مستقبلنا.

تضارب الرؤى حول العولمة

والعولمة، هذه الظاهرة الجديدة القديمة تحاول اليوم أن تضع أسئلة
مترجمة ومهمة وخطيرة على مصير الحضارة الإنسانية عامة ومصير
حضارة الإسلام بصورة خاصة. وبما لا شك فيه أن المقولات
حول العولمة متعددة، ومتنوعة، ومتغيرة، ومتميزة بصورة
كبيرة. فمن الموالين والذائدين عنها إلى الرافضين والمعارضين لها،
ومن الإيجابيين حولها إلى السلبيين، ومن الموضوعيين في تصورها
إلى الذائدين في معالجتها، ومن المركزين على جوانبها المتعددة
إلى الخاصرين لها في جانب واحد، ومن الناهين والمستفيدين
من خبرها والراكين لشهرها إلى الغافلين والناهين بين شهرها
وخبرها، ومن أهل الخسرة فيها إلى المتحذرين فيها بغیر علم ولا
وعی ولا منهج ولا نظام، ومن العارفين بمفهومها وحقائقها
وآلياتها إلى الخاطئين لها في المفاهيم.

وقد يقال ما علاقة الأستاذ النورسي ورسائل النور بموضوع

من المخاطر، ومؤذنة لمستقبل غامض في كثير من جوانبه إن لم
يُندرك الأمر بسرعة وحكمة. وهذه المخاطر المحدقة بالإنسانية
جميعاً، وهذا المستقبل الغامض غير نابع في أصله من عدم وجود
المنظور الكوني القادر على توجيه خطى الإنسان، ولكنه أساساً
مناتاً من بعض التحكيمات الإنسانية المتعسفة التي تحاول فرض
مقولاتها وأيديولوجياتها على باقي الإنسانية، وسائر الثقافات
البشرية وخاصة المغلوبة على أمرها مثل عالمنا الإسلامي المعاصر.
وقد عبر الإمام النورسي عن هذا المنطق مشيراً إلى مخاطر المدنية
الغربية غير المتوازنة بقوله: "إن دهايك المظلم قد قلب نهار البشرية
ليلاً، ذلك الليل البهيم بالجور المظلم، ثم تريد أن تنوري ذلك
الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة... هذه المصابيح لا تنبسط
لوجه الإنسان، بل تستهزئ به، وتستخف من ضحكاته التي
يطلقها ببلادة وهو منمرغ في أحوال أوضاع مؤلمة مبكية".^(١)
فهذا التعامل غير المتوازن مع الإنسانية ومع البشرية عموماً أدى



وسائل النقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبح العالم كالمدينة الواحدة، وغدا أهله في مداولتهم الأمور كأهم في مجلس واحد.^(١)

أولاً: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي

ينبغي لنا أولاً وقبل كل شيء أن نتحدد ولو بصورة عامة مفهوم العولمة، لكي نتبين حقيقتها وأبعادها ومخاطرها على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية والإنسانية بصورة عامة. ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن تعاريف العولمة متعددة جداً، ومتنوعة بصورة تكاد لا تحصر. ويمكن أن تعرف العولمة بصورة عامة على أنها تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يبشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية، وافتتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها البعض بسبب تأثير الثورة التقنية والتكنولوجية والاتصالية والمعلوماتية؛ بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات والتعاملات والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري، وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية وثقافية واجتماعية وحضارية توحده مصيرها وتوحد مشكلاتها. ففي ظل هذا التعريف العام للعولمة ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والجغرافية والعمرية يصبح المجتمع الإنساني وحدة واحدة أو كما يسمونه بـ"قرية الكرة الأرضية".

فإذا كان هذا التحديد للعولمة سليماً بصورة عامة، فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا بعض الأبعاد والأفاق التوسعية الفوضوية الخطيرة التي كثيراً ما لا تأخذ بعين الاعتبار مصالح وهوم الإنسان غير الغربي. وهذا الأمر يجعلنا نزيد في توضيح بعد مهم من أبعاد العولمة، وهو الذي يمكن نعتة بالبعد الأيديولوجي الاستراتيجي التوسعي الذي يتخلف مصالح دعاة العولمة بصورة خاصة.

فإذا ما أخذنا هذه التحديدات بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية للعولمة، ونستطيع أن نميز بين ما هو لا إنساني وسلي فيها، وبين ما هو إنساني وإيجابي. ولكن يبقى الأمر الهام والذي ينبغي أن نؤكد عليه جيداً وهو أن العولمة في عمقها المعرفي والتاريخي والسوسيولوجي والأخلاقي والمادي هي بلا شك فعل حضاري ثقافي غربي يحاول إعادة صياغة الكيان الحضاري للبشرية جميعاً وصيغته بالصيغة الغربية، وجعل النموذج الحضاري الثقافي الاجتماعي الغربي قانوناً يحكم حياة الإنسان، ويصوغ له أقداره ومصائر وتوجهاته، ويعيد ترتيب نظام القيم والعلاقات والمعرفة والسلوك على وفق الرؤية الكونية الغربية.

العولمة؟ فلا التورسي ولا رسائل النور تتحدث عن موضوع العولمة؟ وما عساه أن يقوله في موضوع جديد لم يُعهد هذا المصطلح والمعنى في زمانه؟

ولكن قبل القيام بهذا التحليل ينبغي أن نجيب عن سؤال مبدئي أولي وهو "ما هو مفهوم العولمة في الأدبيات القائمة حالياً وما مخاطرها على العالم الإسلامي؟" حتى يتسنى لنا تمييز موقف ورأي ومقولة رسائل النور في الموضوع. فيتحصل من هذا الكلام أن نركز في موضوعات ثلاث هي:

أولاً: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي المعاصر؟
ثانياً: كيف ينبغي أن نفهم العولمة في رسائل النور؟
ثالثاً: الرد التورسي على مخاطر العولمة والقيمة الحضارية للنسج الأخلاقي في رسائل النور.

الدور المستقبلي لرسائل النور

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بتحليل هذه النقاط الثلاثة فكرة مهمة جداً أوردها الإمام التورسي في رسائل النور عندما كان يتحدث عن القيم الحضارية والتاريخية والكونية العامة لرسائل النور، حيث يبدو وكأنه يتوقع دوراً حضارياً ضخماً وفعالاً لرسائل النور في مستقبل الأيام، ويعتقد أن رسائل النور ستتحول إلى بؤرة تركيز عالمي تجذب العلماء والمفكرين والحكماء في زمن تعيش فيه الإنسانية أخطر مراحل تطورها وأعقد مشكلاتها. فيقول الإمام التورسي رحمه الله: "إن أجزاء رسائل النور قد حلت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضاحتها وكشفها وألجست أعين المعاندين للمحدين وأفحنتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيداً عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني.. أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان. فرسائل هذا شأنها لا بد أن العالم -وما حوله- يأجمه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف ماسي يثّر في قبضة أهل الإيمان".^(٢)

إن هذا الكلام يبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك الدور الحاسم الذي ستؤدي لرسائل النور في النقاش العالمي الذي يدور حول حاضر البشرية ومستقبلها، ويبين لنا كيف أن هذه الرسائل لها استيعاب خاص لواقعنا الحضاري المركب والمعقد، وسنحاول إبراز بعض ما تستطيع أن تقدمه الرسائل لإنقاذ إيمان الأمة في عصر العولمة التي يعمر عنها التورسي بقوله: "أما الآن فقد تطورت

ثانياً: مدخل النورسي لفهم العولمة وإدراك مخاطرها

من الأهمية أن نكتشف مفهوم العولمة وحقيقتها ليس عن طريق البحث في صفحات رسائل النور عن هذه اللفظة أو المصطلح، ولكن عبر التحليل للوحدة المنهجية والعضوية للنص النورسي في كتابه. وعلى هذا الأساس سنحاول كشف أهم مدخل من مدخل فهم العولمة وأبعادها وأسبابها وآثارها ومخاطرها على الإنسان المعاصر عامة، ويمكن أن نتخصر هذا المدخل فيما يسميه عالمنا الجليل النورسي "المعنى الخرفي والمعنى الاسمي". وبعد التعرف على هذين المفهومين يمكن تقديم صورة للعولمة كما نعتبر عنها رسائل النور.

أ- المعنى الخرفي والمعنى الاسمي في فهم العولمة

يتحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن مسألة المعنى الاسمي والمعنى الخرفي ويعلمهما من أهم الأفكار في رسائل النور. ونحن نستطيع أن نستخدم مفهومَي المعنى الاسمي والخرفي للدلالة على أهم وأخطر بعد من أبعاد العولمة باعتبارها متوجهاً إنسانياً نابعاً عن تطور الذنوية الإنسانية وتوجهها وجهة معينة أوصلتها إلى الوضع الحالي من التآزم والفضوى والاختلال العام. وقبل أن نربط بين مفهوم المعنى الخرفي والاسمي ومفهوم العولمة نحاول ذكر تعريف النورسي لها. فالمعنى الخرفي يعني النظر إلى الكون والأسباب، والمعجزات، والحوادث، والوقائع، والسنن، والآيات الإلهية الآفاقية والأفندية "والموجودات التي - كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الخرفي، أي من حيث دلالتها على الصانع. فيقول "ما أحسن خلقه"، "ما أعظم دلالته" على جمال المبدع. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكاتات^(١)".

فالمعنى الخرفي إذن دال على غيره وليس على ذاته، وإما ذاته ونفسه ما هي إلا مرآة عاكسة لشيء أعظم من النفس وأعظم من الوجود وأعظم من الدنيا "أي أن أنأ" لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف^(٢). فالإنسان والجنم الذي ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الحضارة بالمعنى الخرفي فإنه سيرى الأشياء والأمور على حقيقتها، وبالتالي تتسجم خطاه مع مراد الله، وتتناغم أعماله وأقواله مع سنن الله وقوانينه، لأنه ينظر إلى الوجود على أنه دليل على خالقه عز وجل.

وأما إذا نظرنا إلى الأمور وعالجنا المشكلات الإنسانية بمنظور ونسق المعنى الاسمي، فإننا نكون أمام وضع مختلف تماماً عن وضع

المعنى الخرفي. ففي المعنى الاسمي نؤله الأسباب، ونغلد إلى الدنيا، وننتقل إلى الأرض، ونعتبر أن الحياة الدنيا هي خلاصة كل شيء وأن التطور المادي والرفقي العمراني هو غاية الوجود كله. وهذا تنظر إلى أنفسنا (أنأ) على أنها كل شيء ومصدر كل خير، ونجعل من العقل إلهاً تحكمه ومن الفلسفة معارف عليا كلية توصلا إلى كل ما نريد معرفته. فلا يرى وراء العقل ووراء الفلسفة شيئاً مفيداً.

فإذا ما نظر الإنسان إلى الحياة والكون والوجود بالمعنى الاسمي، فإن نظرتة وأفقته ينحصر في ذاته، ويسدور حول أنأه مهما حققت من الرقي المادي، ومهما تفجرت أمامه من عيون الحضارة وخبراتها، وإنه يبقى دائماً مسلوب الوعي الصحيح، فاقد الرشاد والهداية غارقاً في الملدات والشهوات لا يكاد يرى وراءها شيئاً. وبهذه الكيفية يجعل المعنى الاسمي الإنسان تائها في نفسه لا يكاد يدرك حقيقته وحقيقة رسالته الوجودية.

ب- العولمة كنتاج للمعنى الاسمي

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فكرة المعنى الخرفي والمعنى الاسمي وأردنا تطبيقها على مسألة العولمة، فإننا سندرك حقيقتها وجوهرها بصورة جلية. فالعولمة في جوانبها السلبية ما هي إلا تجل لاستحكام المعنى الاسمي والفلسفة الاسمية والرؤية الكونية الاسمية في الثقافة، والنفسية، والعقلية الغربية التي تقود الحضارة المعاصرة. فعلمية الاستبدال للمعنى الخرفي بالمعنى الاسمي في الواقع الإنساني هو الذي أدى إلى نشوء هذه الثقافة والنفسية والشخصية التي تحمل راية العولمة وتتبن مشروعاتها وتجهها في الهيمنة على البشرية. فعندما تبنت المدينة الغربية هذا المنظور تشكلت ثقافتها، واصطبغت نفسيته بعدة خصائص جعلت منها منبثاً ومنشأً حصياً للفضوى والاختلال والظلم الذي تعانيه البشرية اليوم من جراء أفكار العولمة ومخاطرها.

يقول الأستاذ النورسي واصفاً حقيقة المنظور الاسمي الذي تبنته الحضارة الغربية المعاصرة: "إن أسس المدينة الحضارة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها. فقطعة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا نشأ الخيانة. هدفها وقصدتها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التراحم والتخاصم، ومن هذا نشأ الخيانة. دستورها في الحياة: الجدل والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا نشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بتلاع الآخرين وشأن



منهجها العام يستطيع أن يدرك أن أي مدخل لمواجهة مسألة العولمة أو غيرها من المشكلات التي تواجه الإنسانية ينبغي أن يدور حول "المسألة الأخلاقية". فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور ووجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر. ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية. ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما أسماه النورسي بالمعنى الخرفي. وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الخرفي فإننا نجد أنها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية.

وفيما يأتي بيان لمفهوم ودور المسألة الأخلاقية في مواجهة تحدي العولمة والرد على تياراتها السلبية المتعاطف الذي حول حياة الملايين إلى يأس، وأصبح الكثير من الناس لا يشعرون بالأمان أمام هذه الأوضاع المتردية. وقد عبر النورسي عن مثل هذه النتيجة الأخلاقية المؤسفة بقوله: "فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية مجموعه إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح.. ووفق هذا نمضي حياتنا رتيبة مملئة بآساة خيالية المعنى".^{٤٣}

ثالثاً: القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور

لا شك أن الذي يطالع على رسائل النور يقبل بخلص وعقل مفتوح وبصورة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكنيتها وشموليتها وجامعيتها "درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق". وعندما يلج هذا القارئ المخلص والواعي مسالك رسائل النور، ومدخلها النورانية القرآنية المعنوية سيبين أن "المسألة الأخلاقية" تمثل المحور المركزي والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة.

وليس من قبيل المصادفة أو الرحم بالعب أو الارتجال الفوضوي أن تتوغل المسألة الأخلاقية في هذا الموضوع الحظير والتميز ضمن اهتمامات الخطباء السوري، ولكن طبيعة الدرس النوري، وصلته الوثيقة بآفاق الكرم، وبالمودع السيوي الأخلاقي العظيم قد فرضا على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة الأخلاقية مبنية دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة للحضارة الإنسانية.

فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أس أساسات الأفعال الحضارية والتاريخية

القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتغير بدورها الإنسانية وتسخ مسخاً معنوياً".^{٤٤}

فهذا الوصف الدقيق للرؤية الكونية الغربية وخصائصها الثقافية نجد الأستاذ النورسي قد حدد المدخل الأصل والصحيح كذلك لإدراك حقيقة العولمة باعتبارها منتوجاً لهذه الثقافة والرؤية والحضارة. ومن هذه التحديدات يقدم لنا النورسي صورة عميقة ومعبرة عن حقيقة العولمة وطبيعة العقل الذي أنتجها وتوعيتها الثقافية التي تتف ورائها، كما يقدم لنا أمثلة واقعية لما تفرزه هذه الظاهرة وما تتركه في واقع الناس. يقول الأستاذ النورسي: "إن المدنية الغربية الحاضرة لم تلق السمع أبداً إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتماهى في هيج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والثقافة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المخرمات".^{٤٥}

فما لم ندرك مسألة العولمة في إطار ما أسماه الأستاذ النورسي بالمعنى الاسمي فإننا سنبقى دائماً ننظر إلى المسألة بصورة سطحية لا نرى من خلالها عمق الأزمة وعمق المشكلة الخطيرة التي تواجهها البشرية. فكل المآسي المشار إليها ما هي إلا نتاج مباشر للشخصية والعقلية التي تتبنى النظرة الاسمية للحياة والدنيا والعالم والحضارة. وفي هذا السياق نجد النورسي ينعي على هذا التوجه ويتوقع هلاياته وفساده لأنه لا يتسجم مع سنن الله ولا مع نواميس الكون. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أن تحليل النورسي لأزمة الحضارة الإنسانية والمدنية الغربية بصورة خاصة إنما تتم ضمن ما أسماه بالنظرة الاسمية أو المعنى الاسمي للوجود. فهذا العمق والنظرة إذن تقدم لنا رسائل النور المدخل الأصل والصحيح ليس فقط لفهم العولمة ولكن كذلك لفهم مشكلات الإنسانية عموماً.

وبعد أن بينّا بصورة مختصرة مدخل رسائل النور في النظر إلى مسألة العولمة، وأوضحنا ما لفكرة المعنى الاسمي والخرفي من فائدة في إدراك حقيقة المشكلة الإنسانية والأزمة الحضارية التي تواجهها البشرية في عصر العولمة يبقى لنا أن نبين ما هو المدخل الأساسي لعلاج هذه الأزمة والرد على تحدي العولمة الذي يكاد يطبق على البشرية جميعاً بتيارها المتعاطف.

والسني يقرأ جيداً رسائل النور ويتعمق فيها ويكتشف

شأنها: الأخوة المخلصة والمسألة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. ودستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدل والصراع، والتعاون شأنه: الاتحاد والتساند. وتضع الهدى بدلا من الهدى، والهدى شأنه: رفع الإنسان روحيا إلى مراقى الكمالات".^(١٠)

والأمة الإسلامية والعالم الإسلامي في عمقه الأخلاقي ينبغي أن يكون هو التجسيد العملي لهذا الدرس الأخلاقي الذي لخصته رسائل النور تلخيصا عميقا مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والدرس الأخلاقي التطبيقي النبوي؛ إذ تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزها وموقعها وموضعها ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناها وطبقناها وتذوقنا آثارها وغرناها، حين تتحول الأخلاق إلى الطافة والقوة التي تبني الإنسان والجموع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي الإحسان والاستقامة باعتبارها من أهم معايير الصلاح الإنساني.

فنحن إذن لا نستطيع أن نفهم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية والوضعية والمادية وربطناها بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي في التوحيد؛ إذ هذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطها بالإيمان والتوحيد والشرعية والاستخلاف والكون والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورها في عمق معانيها في حياته وأعماله وأفعاله وأقواله ومنهجه وسنته وسائر أحواله.

وهذا ينقل المنهج النورسي قضية دراسة الأخلاق من التجريد والفوضى المعرفية إلى العمل الصالح والارتقاء بالوعي والعقل إلى حقائق الإيمان وتجلياتها النفسية والكورتية. وهذا كذلك يقدم لنا النورسي الأخلاق باعتبارها الحل السليم والعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات. ■

(١٠) الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

أفواض

- (١) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ١٨١.
- (٢) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٢٤٨.
- (٣) صيفل الإسلام لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٥٧.
- (٤) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ١٤٣.
- (٥) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٣٣٧.
- (٦) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٨٥٥.
- (٧) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٣٨٠.
- (٨) الشعارات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٢٤٢.
- (٩) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٦٢٤.
- (١٠) المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصاغي، ص ٦٠٦.

الموازنة في المسيرة الإنسانية، التي كان قادها الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون من أول نبي عليه الصلاة والسلام إلى آخر الأنبياء محمد ﷺ الذي كانت أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي هو أخلاقه التي جعلت منه رحمة للعالمين. والذين يسبرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة، أو كما يقول النورسي: "بينما الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكما ملوه العبودية لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسلجيا السامية والحصل الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه".^(١١)

فإذن ليس من العجيب أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النوري. فالقيمة الخلقية، وبناء الأخلاق، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لازمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.

ومن هنا المطلق يلقي رسائل النور ترسم لنا صورة أحادة وعيقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، فنتر لنا العد الإيماني الإحساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الفصلة بين العد وره، وبين العد وأحبه، وبين العد والكون المحيط به.

ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الأخيلة للجان الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنزع من رعا فلسفيا نظريا، ولكنها توجه نحو القلب والبصيرة والوعي والسلوك والنفس لتحرك الوجدان كله والوعي كله لتلقي الحقيقة القرآنية الإيمانية الثورانية كما هي في الخطاب القرآني. فالأمة الإسلامية الحققة أمة أخلاقية، لأنها تبني النظرة الحرفية في الحياة والاعتقاد والفكر والسلوك والعمل. وعلى هذا الأساس فإن الحضارة والمدينة التي تشكلها الشريعة المحمدية الحرفية هي مدينة متوازنة ومتناغمة مع طبائع الفطرة ومنسجمة مع سنن التاريخ.

وفي هذا السياق يصف لنا النورسي طبيعة المدنية التي تنشأ عن النظرة الحرفية الأخلاقية فيقول: "أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأخيلة وتأمرها، فإن نقطة استنادها: الحق بدلا من القوة، والحق بشأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة شأنها: المودة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها: الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلا من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة

شيخ علماء الإسلام محمد زاهد الكوثري

أ.د. عمار جبدل*



نبذة عن حياته

ي

يعد محمد زاهد بن حسن الحلبي الكوثري أبرز علماء الأحناف في العصر الحديث، وقد ولد يوم الثلاثاء ٢٧ أو ٢٨ من شوال ١٢٩٦ هـ الموافق لسنة ١٨٧٨ م. تلقى علوم العربية والشريعة في وطنه تركيا. فبعد التلمذ لوالده انتقل إلى "دورجه" متعلماً ثم الآستانة. كما استفاد من علماء زمانه في مختلف فنون المعرفة، وظل مواظباً على التحصيل رغم الرتب العلمية التي نالها؛ فأخذ كما هي عادة علماء عصره الإجازات عن كثير من أعلام زمانه. وبعد أن ضاق المكان عن الاحتمال انتقل -مستصحياً الرغبة في التحصيل والإصلاح- في رحلات متتالية إلى الإسكندرية ثم القاهرة ومنها إلى الشام، ومنها إلى بيروت ثم دمشق، ثم استقر به المقام بمصر التي وصلها عبر فلسطين، وقد لاقى في تلك الرحلة كثيراً من العناء.

ظهرت عليه علامات النبوغ منذ المراحل الأولى للتحصيل؛ فقد اشتغل بعد نيل الإجازة العلمية (العالمية) سنة ١٩٠٧ م بالتدريس في جامع الفتاح وعمره أقل من الثلاثين عاماً، واستمر على هذا العمل مدرساً في مدرسة المتخصصين بدار الخلافه ثم بجامعة إسطنبول، وجمع إليها التدريس في المعاهد والمدارس المسائية. أخذ عنه كثير من فضلاء زمانه، من أمثال أحمد خيرى (ت: ١٩٦٧ م) وحسام القدسي (ت: ١٩٧٩ م)، وعبد الفتاح أبو غدة العالم الزاهد (ت: ١٩٩٩ م)... وغيرهم كثير.

كان لعالمنا آثار محموددة في شتى أنواع العلوم (بعضها ما زال مخطوطاً، وبعضها ضاع)، وما طبع منها جاوز العشرين مؤلفاً، كما علق على كثير من المؤلفات النافعة، وكان إضافة إلى ذلك يكتب المقالات التي عرفت بـ"مقالات الكوثري"، ضمّنها الحديث عن كثير من ميادين الإصلاح كالعلوم والتعليم والاجتماع والتربية والعمران، ووضع المرأة... وحذّر من أمراض أصابت الأمة من نحو التحلل والفسخ وهيمنة التشرذم وعادات الجاهلية، والرضا بالذل على كل الأصعدة، واللامبالاة بما حل بالأمة من تقاذل يندّر بالسقوط، والتي سمّاها الكوثري بعلّة "أنا مسائي"، فهي على وجازها علّة العلل في الخلل الذي طرأ على شؤون الأمة في كل زمن.

يفرض وضع هذا شأنه -برأي الكوثري- العمل على إصلاح الأفراد بالتربية الدينية الراسدة، لأن الفرد هو النواة الأولى للأسرة، ولأن الأسرة هي الخلية الأولى لإصلاح المجتمع.. ويفرض كذلك إنجاز دراسات جادة شاملة عن أمراض المجتمع بغرض تشكيل جماعات متصاعدة تقوم بواجب إرشاد الأسر والجماعات والبلدان والدول. ويفتضي نجاح هذا العمل جهوداً جماعية في إطار مؤتمرات تعقد لهذه الغاية، مع السعي المستمر نحو تعارف الشعوب الإسلامية لتتمكن الجامعة من تقوم العود أو رد التعدي على الأمة بالنشاور والتآزر، وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها بعناية فائقة تركز على التضامن الاجتماعي الذي يرمي إليه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشرع الإسلامي، ثم العمل على إصلاح عالم الأفكار بيعت الأبعاد الاجتماعية والسياسية والفكرية للعقيدة الإسلامية. ورأس الإصلاح في عالم الأفكار بعد التوحيد، إبطال فلسفة "أنا مالي"

التي تعتبر عن اللامبالاة وتعطيل وظائف التوحيد. فيعتقد المسلم حين يرفض التسليم بهذه الفكرة أنه من الواجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه مصداقاً لقول النبي ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وقد عُرف إضافة إلى ما سلف بصفات أخلاقية قلّ نظيرها، فقد عرف بالزهد والتعفف والصبر وحسن المعاملة وعدم قبول أجر العلم. وحلبت تلك الصفات الأخلاقية بصفات علمية سهلت له مأمورية التعليم والتربية؛ فقد كان محيطاً بعلوم الشريعة ووسائلها، متمكناً من علوم الآلة وخاصة اللغات العربية والفارسية والتركية والجركسية، إضافة إلى قوة ذاكرة بشرت له ضبط الأسماء مع حفظها، وبلغ فيها درجة سامية جعلته مضرب الأمثال في الحفظ والدقة.

تمكّنه من العلوم

القراءة المثانية لمجموع ما صنّفه الرجل من مؤلفات ومقالات وتعليقات وتحقيقات تدلّ على تمكّنه من علوم العربية أولاً والشريعة ثانياً وفنون الحكمة ثالثاً واللغات الشرقية رابعاً.. فقد كان فارساً لا يبارى في تلك المعارف والفنون.

بيّن التحليل الموضوعي لمجموع مضامين مؤلفاته أننا أمام طود شامخ، أخذ من الأولين قوّة الذاكرة وسعة الاطلاع وطول النفس والصبر على التحصيل والتحليل والتحقيق مع جرأة في الحق يغبط عليها.

كتب وصنّف في جلّ علوم الشريعة والعربية، فمع الفقهاء كان فيها متضلّعاً، ومع الأصوليين كان جريماً يحرر المسائل بدقّة متناهية، ومع المتكلمين كان متكلماً نظّاراً، ومع المؤرخين محققاً مدققاً، أما في الحديث وعلومه فهو فارس بجلالته وشيخ غصصانه من غير منازع... وحيد عصره وفريد زمانه نستبج وحده كما قال أحد تلاميذه. وتبيّن تلك الخفيفة بعرض يسير لأسماء الأعلام الذين ناقشهم؛ فقد تتبّع أقوال الفقهاء والمتكلمين والحديثيين والمفسرين والمؤرخين والفلاسفة والمستشرقين...

مكانته العلمية

ناقش أقوال المالكية والشافعية والحنابلة فانصرت لهم أحياناً وورفض أقوالهم أحياناً أخرى واضعاً نصب عينيه في كل ذلك الانتصار

للإمام أبي حنيفة، ووقف ذلك الجهد ناقش أقوال الحديثيين كابن خزيمة والدارمي وابن الصلاح والخطيب البغدادي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وخلفاء كثيرًا.

وناقش في المفسرين ابن جرير الطبري والزنجشيري والرازي، كما ناقش المتكلمين وأتباع الفرق الأخرى؛ فحلل وناقش آراء الأشاعرة وأعلام الشيعة كالنويني، وجاوز ذلك إلى رد مقتربات المستشرقين والمفكرين من أبناء أمتنا الإسلامية.

وعلم هذه السعة في التأليف لا بعدم نقاداً ومناوئين. والموازنة بين أقوال المناوئين والمناصرين يحتاج كتاباً موسعاً، لا يسع بيان أطرافه مقال، لهذا سنستقف في هذه المقالة مع من ناصر آراءه الفقهية والأصولية والحديثة والعقدية.

فقد قال عنه محمد أبو زهرة (ت: ١٩٧٤): "لا أعرف عالماً مات فخلاً مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري، لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقاً ولا سلماً لغاية.."

وورد عن أبي زهرة في وصفه ما بيّن معرفته بالرجال ومنازهم، اخترنا في هذا المقام نقفاً من تلك الخلل التي وصفه بها: "إنه تحقّق فيه القول المأثور "العلماء ورثة الأنبياء"، وما كان يرى تلك الورثة شرفاً يفتخر به ويسلط به على الناس، بل كان يراه جهاداً في إعلان الإسلام وبيان حقائقه وإزالة الأوهام التي خفت جوهره". يؤكد هذا المعنى، قوله أيضاً: "لم يكن الكوثري من المنحليين لمذهب جديد أو داعياً إلى مذهب لم يُسبق إليه، لذا كان ينفر ممّن يسميهم العامة وأشباه المثقفين بسمّة التجديد، ومع ذلك فقد كان من المحددين بالمعنى الحقيقي للتجديد والذي هو إعادة رونق الدين وجماله وإزالة ما علق به من الأوهام. إنه لمن التجديد أن ثغيا السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين، لقد كان عالماً حقا. (...) وقد عرف العلماء علمه وقيل منهم من أدرك جهاده. ولقد عرفه سنيين قبل أن أفاء، عرفه في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، وعرفه في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها. وما كان -والله- عجي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علق عليه. (...) إنه لم يرض بالدينية في دينه، ولا يأخذ من بذل الإسلام وأهله بهوادة، ولا يجعل لتفسير الله والحق عنده إرادة،



إلى الحق غاية الانتصار،
حارس منيقظ، منافع
عن الخفصة ضد كل
حملة شعاعاً.

كما آتاه وناصره ناشر
علمه وجامع مقالاته
"أحمد نخري"، وفي ذلك
قال عنه: "كان ذا ذاكرة

قذة ولا سيما في حفظ الأسماء؛ فكان إذا سمع شيئاً أو رأى أحداً
مرة واحدة ذكره ولو بعد سنوات. وهباً له ذلك مع اطلاعه على
المخطوطات النادرة في الأساندة ومصر والشام إلى أن أصبح حجة
لا يبارى في علم الرجال. وجمع إلى براعته في الحديث ورحاله
مهاره فاقته في علم الكلام ونسبه الله ﷺ. كما كان أستاذ
العصر في علمي الأصول والفقه، وكان على عقربته المدهشة
يجب أن يتعقبه العلماء".

ويقرب من تلك المقالات ما نقلت عن العلامة يوسف الدجوي
والشيخ عبد الرحمن خليفة وعزت العطار الحسيني وشيخ الأهر
مصطفى عبد الرازق ومحمد نجيب الطبعي وعبد الجليل عيسى
وحسام القدسي ومحمد زكي مجاهد وسلامة القاضي ونجم
الدين الكردي وغيرهم كثير.

ويقول عنه سلامة القاضي: "العلامة الخفوق والمحدث الفقيه
الخفوق الأستاذ الأجل الشيخ زاهد الكوثري شفي به صدر السنة
ونصر به الحق الذي عليه الأمة".

أمّا نجم الدين الكردي فيقول عنه: "الخفوق الفهامة البارع،
أعلى الله درجته في المهديين نظراً لما مَنَحَ به من تعليقات نفيسة
على كتاب البيهقي "الأسماء والصفات"، تعليقات بما فيه من
رجال الأسانيد وما لا بد منه".

وبالإضافة إلى كل ما سلف فقد اهتم به الباحثون في الدراسات
الإسلامية والفلسفية. وقد وصفه الأستاذ الدكتور علي سامي
النشار بأوصاف لم يصف بها غيره من أقرانه، فقال: "عالماً الكبير
المعاصر"، "عالم الإسلام الكبير"، "العلامة"، وذهب إلى ما يقرب
من هذا محمود محمد عويس في كتابه "ابن تيمية لبس سلفياً".

وهكذا يتبين لنا أن الكوثري محدث فقيه أصولي متكلم ومفسر

وإنه لا يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق ولا
تتعالى فيها كلمة الإسلام".

لذا يتباهى الإمام أبو زهرة بذكر الكوثري له في بعض مؤلفاته،
حيث يقول معلقاً على ذكره له: "وما كنت أحسب أن لي في
نفس ذلك العالم الجليل مثل ما له في نفسي، حتى قرأت كتابه
"حسن النفاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي" فوجدته
رضي الله عنه قد خصني عند الكلام على الحبل المنسوبة لأبي
يوسف بكلمة خير. وأشهد أبي سمعت ثناء من كبراء وعلماء فما
اعتزرت بثناء كما اعتزرت بثناء ذلك الشيخ الجليل، لأنه وسام
علمي من يملك إعطاء الوسام العلمي".

هذه شهادة ثقة يثق لنا أن نهايها بها ونقدمها بل ونعملها
العمدة في معرفة منزلة الشيخ محمد زاهد الكوثري، إنها شهادة
عالم متبحر شهد له الداني والقاضي بسعة الاطلاع ورحابة
الصدر والبعد عن التعصب المقيت.

ويرى الأستاذ محمد بن يوسف البنوري (كان أستاذاً للمحدثين
بدار العلوم بباكستان) أنه يحق في الكوثري ما ذكره مسروق
ياسناد صحيح في حق عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: "لقد
جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاء (الغدير)، فالإخاء
بروي الرجل، والإخاء بروي الرجلين، والإخاء بروي العشرة،
والإخاء لو نزل به أهل الأرض لأصدهم، فوجدت عبد الله بن
مسعود ﷺ من ذلك الإخاء". إنها تصدق هذه الكلمة في محقق
العصر، الجهيد الناقد الباحث الخبير. فكان رجلاً تنجلي فيه هذه
المزية بأجلى منظرها، رجل جمع بين غاية سعة العلم والاستبحار
المدهش ودقة النظر، والحفاظة الحارقة، والاستحضار الخبير،
والجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها وشعبها، وعلوم
الدراية على تقنين مراميتها. لقد كان الكوثري عالماً محيطاً بنواد
المخطوطات في أقطار الأرض وعزائات العالم، مع الغيرة على
حفظ سباج الدين، أو إيداء وجه الحق إلى الأمة ناصح الجيئين".

وورد عنه في سياق بيان منزلته قوله: "إن القوم لم يقدروا
الكوثري بما يستحقه من تقدير وإجلال. ذلك الخفوق، وذلك
الباحث الناقد، وذلك الخلق الجميل... العالم المثبت الخناط
في النقل، المنيقظ لكل كلام، المستغني عن الاستدلال بالأمور
الدوقية أو الوجدانية في الحاججة، متصلاً بالمعتقد، منتصر

وأدب لا يشق له غبار، وسعى تلك العلوم بسجائيا وأخلاق عالية اعتبر موجهها وبحق بقية السلف الصالح.

تفسيره لإشكاليات العالم الإسلامي

يرى الشيخ الكونري أن أزمة عالمنا الإسلامي في العصر الحديث تليخص في الخلط الطارئ على عرض المسألة الفقهية والعقدية أكثر مما نرجع إلى أسباب أخرى.

يتصور الشيخ أن من أهم أسباب بعد المسلمين عن عقائدهم في العصر الحديث ظهور بدعة التجسيم. وقد ظهر الاحتفال بهذا الاتجاه في العصر الحديث بطبع مؤلفات بعيدة عن العقيدة الإسلامية الصافية وفق تصوره، وهذا الصدد حل على طبع كثير من الكتب وكل ما من شأنه الانتصار إلى ذلك الاتجاه على حساب الاتجاهات الغالبة في البيئة الإسلامية منذ أمد بعيد.

ويرى أن الخلط الطارئ في الفقه سببه اللامذهبية التي سنوول إن نمدى بها الزمن إلى اللادينية وفق رأيه. فقد شق عليه أن يرى التطاول على العلماء الأعلام من فقهاء ومحدثين ومفسرين وغيرهم... لهذا فأرغ وسعه من أجل المرافعة عنهم ومدافعة المظاولين عليهم.

أما الخلط الطارئ على التعليم فسببه الانعناد عن مناهج المتمدنين في التمهين والتثبنت مما سبب فقدان ملكة البحث العلمي الجاد لدى الناشئة. أما الفساد الجديد في السياسة فأرجعه إلى إبعاد الإسلام عن ميدان الحكم وتعبضه بالنماذج الغربية في السياسة والحكم، مما سبب للمسلمين غربة في بلدانهم، وأرجع فساد وضع المرأة إلى هيمنة الفكرة الغربية التي يراد تجسيدها في المجتمع وقضية المرأة على الخصوص، وإذا تم شمس ذلك سيعمدون إلى تغيير كل ما يحمل بذرة الانتماء إلى هذه الأمة، فتتغير العمارة وشكل المدينة والعلاقات الاجتماعية.

تشخيص الكونري للأزمة صحيح في مجمله؛ فالأزمة ثقافية بالدرجة الأولى، ولعل من بين التيارات المساهمة في تأزم الوضع أنباء الاتجاهات الظاهرية في العصر الحديث. فقد كانت بسبب تصرفاتها عاملة على تكريس الإقصاء المتشدد بين المسلمين، لا لشيء سوى الاقتناع بصحة رأي وبطلان ما سواه. وقد ولدت هذه الفئاعات فكرا لا يقبل الحوار، فكرا إطلائيا استبداديا لا يقبل الأخذ بالرد. والفكر الاستبدادي سواء كان دينيا أو لادينيا

كما هو معلوم- فكر يعمل على اغتيال الفكرة المخالفة بكل الوسائل المشروعة شرعا أو قانونا. فإذا أعينته الوسائل المشروعة ركب غير المشروعة للأسف الشديد، وأول مراحل الإقناع بالضغط الأدبي والمالي والسلطاني، وإذا عجزت تلك الوسائل انتقل إلى ما هو أشنع. وقد وصل ببعض المثبتين لهذا الفكر أن أصبحوا كالجائنين لا هم لهم غير إذلال المخالفين. وما ذلك حسب تقديرنا إلا بسبب اختصار الإسلام والفكر في مسائل ظاهرية لا صلة لها بالقلب. ولهذا فالمسألة تربية بالدرجة الأولى مبنها وأساسها ثقافي طبعيا. لهذا لا بد من بذل الجهد من أجل إصلاح ولائنا لله تعالى في إطار البعد الإنساني في تصرفاتنا المبنية أساسا على بحث الروح في الالتزام بأحكام الشريعة.

ولقد غلب على عمل الشيخ وجهوده العمل الفدائي أكثر من العمل المؤسسي، بل يكاد يغيب هذا النمط من التفكير من خلال ما لمسناه من جهود الرجل. لهذا كانت جهوده تنبيهية أكثر مما هي تأسيسية طبعيا في إطارها الكلي لا في إطارها الجزئي، وهو المسلك الذي يختاره جل الفدائيين في الميدان الفكري.

ومن ثم فإننا في حاجة إلى استنماء توجيهاته في ميدان إصلاح التعليم والجو المحيط به، كما أننا في حاجة إلى النسيج على منواله في التربية الروحية الراشدة من أجل نفي النقي وإقصاء الإقصاء؛ تربية تنميتها ونغذيتها ببحث الروح في التزاماتنا الشرعية المؤسسة للههم الحضاري في أنفسنا ومجتمعنا في إطار السؤال الوظيفي الذي يورق كل مفكر رسالي جاد يهيمه أمر أمته، ويتمن أن تخرج في غدها القريب من التخلف إلى التقدم، ومن التبعية إلى قيادة العالم، نحو الإنسانية التي أراد الإسلام تكريسها في العلاقات بين الدول والشعوب والمجتمعات والأفراد.

توفي رحمه الله تعالى بتاريخ ١٩ من ذي القعدة ١٣٧١هـ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٥٢م عن خمس وسبعين سنة، وآم صلاة الجنازة الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ اللغة العربية، ودفن قرب قبر أبي العباس الطوسي في قراة الشافعي.

هذا هو الرجل الذي فقد الإسلام وحسره الأحناف ورزق فيه العلم وتكلمه المروءة واستوحش لغياه الزهد وشغل مكانه بمصر رضي الله عنه وأرضاه وأعلى في جنات الخلد منازل ومثواه. ■

(٥) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.



إبداعات الفنان المسلم في الأشكال الزخرفية

أ.د. بركات محمد مراد

الطبي، وطريقة الكشف على المرضى أو ما يسمى بالفحص السريري الذي ابتدعه الأطباء المسلمون وعلموا أوروبا فيه أحدث الطرق لاكتشاف المرض ومعرفة أحوال المريض. أيضا هناك صور لعلم جبر العظام والخطوات التي يتبعها الطبيب لعلاج الكسور والمخلع وغيرها. وصور أخرى لعلم الكيّ وأخرى لجراحة العيون وجراحة الدوالي، بل وأيضا صور لخطوات الولادة العسرة والجراحة القيصرية. وبعض هذه المخطوطات يعود إلى القرن الثالث والرابع الهجري، وهي عصور ازدهار العلوم الإسلامية، مما يدل على أن المسلمين بعد أن بعدوا عن عصر الجاهلية الذي كانت "الصورة" فيه للعبادة والشرك بالله.. فقد انطلقوا يستفيدون من فنون النحت والتصوير لتطوير حضارتهم العلمية.

أشهر الممنمات

ومن أشهر الممنمات القديمة، رسومات "الواسطي" على مقامات الحريري، حيث تظهر تلك الرسومات التعديل الذاتي الذي قام به الفنان المسلم على الأصل البيزنطي لهذا الفن، إذ ابتعد عن رسم

الممنمات هي صور لإيضاحية لتزيين الكتب ذات الأهمية، وكثيرا ما تحدد معاني الموضوعات الواردة في الكتاب، وهو فن أبدع الفنان المسلم وأظهر براعته الإبداعية في دمج بين الخط والصورة في علاقة تبعث شعورا سارا بالمتعة تجاه "المصور" و"المجرد" في آن معا.

بين المصور والمجرد

وفي عصرنا الحاضر لا يخلو كتاب يدرس في الكليات العلمية من الرسوم العلمية التوضيحية لتبسيط العلم وشرحه للطلاب. ومن المدهش حقا أن يكون المسلمون أول من ابتدع فن الرسوم التوضيحية في التاريخ. وقد نقلته أوروبا عنهم في حضارتها المعاصرة، فهذا الفن لم يكن معروفا عند الإغريق، وفي كتب الطب الإسلامي وفي المخطوطات القديمة نجد الكثير من الرسوم التي تبين لطالب العلم مهمة القضية التي تشرح له.

وهذه الرسوم تشمل كل ذي روح من إنسان أو حيوان أو طيور، فهناك رسوم تظهر الطبيب والمريض وغرفة الفحص

والأوقعيّتها بالقياس إلى الموضوع الطبيعي أو اقتراحها من الأشكال الهندسية في محاولة لإعطائها بعض السمات الروحية، وفي ذلك مجارة للشرعية. فإن ذلك يعطي بعضا من المشروعية، حيث يجد الناظر في هذه الرسوم بواطن كتابية أو خطوطية وزخرفية قد تكون حائلا آخر دون الاعتراض على هذه الرسوم.

ومن هذه الوجهة فقد كان هذا الموقف فعلا في نماذج تصوير المسلمين للمعقود الجمالي؛ فعلى الرغم من قيمة الرسم والتصوير عندهم، فإنه لم يكن الرد الكافي على الاحتياجات النفسية لديهم، وخاصة الدينية منها. فقد فضل الفنانون تزيين المساجد والكتب الدينية والأماكن المقدسة بالخط والزخرفة العربية، جاعلين منهما نتاجا متمائزا لفهمهم الجمالي ومُحورين حولهما كافة الفنون التشكيلية الأخرى.

العناية بالخط العربي

لذا فقد شكلت مسألة موقف الإسلام من الرسم والتصوير التشبيهي تأكيداً آخر على انصراف الفنانين العرب والمسلمين نحو العناية الجمالية والتشكيلية بالخط العربي، وتأكيد وبطوره حضوره الفني في كافة المستويات الحياتية. ولا شك أنه كان للبهضة العلمية الإسلامية تأثير كبير في ازدهار الفنون. فقد أفادت الزخرفة من علم الهندسة إما إضافة؛ إذ تحولت من التسطيع والسذاجة إلى التعقيد والعمق، وترجمت النظريات الهندسية والرياضية عموماً إلى فن راق أصبح بطوره شاهداً على ارتفاع الهندسة العملية. نفس الشيء يقال عن تطور زخرفة الخط العربي؛ لقد تحول إلى "خط هندي" يشي بالدلالات الثرية، ويعكس طابع الأرسطراطية والازدهار في المجتمع الإسلامي. هذا فضلاً عن دلالاته على الارتباط بتطور الصناعات عموماً خلال عصر الفصحى.

وكان تطور الخط الهندسي بمثابة ترسيخ لإحدى القواعد الهامة في علم الجمال حتى حكم أحد الدارسين بأنه ارتقى بالفن الزخرفي إلى ما يشبه تشكيلات موسيقية. كان الخط الهندسي - في المحصلة النهائية - شكلاً مهماً من أشكال الفكر الجمالي، كما كان محاولة لرفع الفن إلى مستوى المنابع الروحية دون أن تنتزع منه التشكيلة الحسية لتأمل والتعقيل.

وينبغي الانتباه إلى أن مقولات الحكم الجمالي، فيما يتعلق بالمصورين كما ذكرها "ميرزا حيدر دوغلات" (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) هي الرقة والتناسق، اللتان تضمّنان قيمة أخرى كالنعومة والطلاوة والشفرة والوقع اللطيف والنظافة والصفاء والفصل والمتانة،

الحالات المقدسة للأشخاص، وتحولت إلى حواف ملونة. وكذلك اهتمامه بالتفاصيل المميزة لكل شخصية مرسومة من حيث الحركة والإيماءة، بالإضافة إلى أن اختيار الواسطي للألوان واستخدامه لها استخداماً ملائماً من حيث كونها قيمة تشكيلية في ذاتها مما دعا المستشرق "بابا دويلو" أن يقول: "ليس من قبيل المبالغة القول أن كل مصوري الإسلام كانوا يفتقون البراعة في استخدام الألوان".

وقد أتقن يحيى بن محمود الواسطي رسوم الجموع في مخطوطته، كما تمكن من التعبير عن حليجات النفوس، وأن يكون واقعيًا في تمثيله للمناظر. وقد رسم الواسطي مقامات الحريري (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م)، وتُعرف هذه النسخة باسم "مقامات شيفر" وهي محفوظة بالمشيخة الأهلية بباريس. كذلك نرى نزوعاً نحو المنظور وإن كان غير تام، وأيضاً اهتماماً بعناصر الصورة من حيث حجم الأشخاص وتعبيراتهم المختلفة على وجوههم وحركاتهم مما يعطي من شأن الصورة في تدرجها في سلم القيم واحتوائها على أكبر قدر من القيم، أي الانتقال من القيم التشكيلية إلى الاهتمام بالقيم التمثيلية والروحية.

وقد وصلنا العديد من المخطوطات الإسلامية لموضوعات أدبية وأسطورية أو علمية وألبيومات شخصية كلها كانت تعكس في مجال التصوير والزخرفة مدارس فنية ازدهرت في العصور الإسلامية المتتالية. ويتضح في معظمها محاولات جادة للمصور لإظهار المشاهد من خلال تكوينات لا علاقة لها بالواقع من حيث الجمع بين الليل والنهار في الصورة الواحدة، أو الجمع بين الداخل والخارج، أو التعبير المتناقض عن العمارة الإسلامية في التصاوير من خلال رسم دقائق الزخارف أو التعبير عن قوة الحاكم أو نبله وثرائه في صور.

الفنان والأشكال الزخرفية النظرية

إن المنمنمات (Miniature)، كتصوير عربي وإسلامي استعارت تكوينها من الأشكال الزخرفية والخطية؛ فاللؤلؤ الذي اعتبره "بابا دويلو" أرضية التأليف الفني لكل المنمنمات العربية والإسلامية استعمل كثيراً وبترداد ملفت للنظر في الزخرفة العربية، ودخل في الكثير من أنواع الخط العربي. أما المرتع السحري أو ما سمي بالأوراق السحرية فقد أيضاً قاعدة تأليفية للعديد من المؤتلفات الزخرفية والكوفية. أما الثياب والأشجار وحن السماء، فهي عبارة عن خطوط مشاهة للزوايا الخط النسخي وترجمته. ويعد ذلك عاملاً مساعداً على اللامحاكاة بوجهها الأول

في ذلك على أي الذكر الحكيم
بل تعداه إلى الخديث الشريف
والأمثال السائرة والحكم البليغة
والشعر الرقيق.

سلطان الزخرفة

وبلغ من سلطان الزخرفة الخطية
العريضة أنها فرضت نفسها
على كثير من مزخرفي الخزف
والسجاد الأوربيين ممن تتلمذ
على هذا النشاط من الحضارة
الإسلامية. فظهرت من تحت
أيديهم زركشات فيها ملامح
الخط الكوفي النسخي دون أن
تقول شيئا أو تمكن قراءها.

أما الزخرفة فهي كل رسم
يُعمل على مسطح بقصد ملء الفراغ بنبات جمالية متناسقة
تستريح إليها العين. والزخرفة تكون خطوطاً أو هياكل هندسية
أو نباتية أو حيوانية. وهما لا يعتمدان أولاً وأخيراً على ذوق صانعها
ودرجة سيطرته على المادة التي يزخرفها أو يزخرفها بها. ويتأني
أكبر جانب من جمال الزخارف من التكرار؛ فإن هيئة ورقة
العنب شكل جميل، فإذا رسمنا هياكل ورق عنب متجاورة في
صورة متماثلة - على أي هيئة كانت - حصلنا على زخرفة.
وكذلك يقال عن زهرة اللوتس أو الأكانتوس أو الليق أو أي
زهرة أخرى.

وقد وصل الفنان المسلم في إبداعه للزخرفة، حيث جعلها
ميدان إبداعه، ووصل بابتكاراته في هذا الحال إلى ما لم يصل إليه
غيره من أهل الفن في أي نطاق حضاري آخر، حيث اعتمد الفنان
المسلم على عنصر "التكرار" و"التوازن"؛ فالتكرار المتوالي لأي
هيئة يمدد أثراً زخرفياً جمالياً. والتوازن كذلك له نفس الأثر.
وهذا التوازن يبدأ من خطين أو منتمين متمثلين، ويستطرد
إلى صور هندسية ونباتية وحيوانية لا نهاية لها ولا حد لجمالها.
والزخارف قد تكون مجرد رسوم وقد تغفر بارزة، وقد تكون
ذات لون واحد أو أكثر. وقد ابتكر الفنان المسلمون من تقاطع
ما يسمى بالطبق النجمي، وهي زخارف مستديرة الهيئة تصنع
خطوطها نجماً في وسطها، وتفتنوا في ذلك فنناً يجار فيه العقل.



في حين أن مصطلحات مثل "غير
متناسق" (لا تماثلي) أو "فج" هي
التي تعبر عن ضالة "قيمة العمل
الفني".

وقد كان الرقش أو
الأرباسك والخط والزخرفة هي
وسائل الفنان المسلم إلى تحقيق
كل المفاهيم الجمالية اللانهائية التي
يصبو إلى تحقيقها. ونجد الرقش
العربي في نقطة التقاء الخط العربي
بالنصوير. والخط العربي هو تجسيد
في رسم الحروف والكلمات التي
تحمل معاني معينة، أما النصوير
فهو رسم أشكال ووجوه تمثل
حدثاً أو مشهداً واقعياً أو خيالياً.
أما الرقش فهو رسم لا يحمل
معنىً بانياً أو لفظياً وإنما ينقل الشكل المبولالي والجوهر لأشياء
كانت واقعية.

الرقش والخط

وهنا يتضح أن الرقش كان - وكما توصل إلى ذلك الباحث الكبير
"عفيف بنسي" - مثل الخط من جهة والصورة من جهة أخرى.
لقد اتجه الخط العربي من شكله البدائي إلى شكل فني لم يعد له حد
في التفنن والتعبير. ومع أنه لم يتخل عن وظيفته فإنه أصبح صيغة
فنية مجردة لا ترتبط بالمعنى بذاته، بل بصفته القدسية التي أصبحت
جمالية تبعاً لجمال الخط ذاته، وتزداد مكانة الخط الفنية كلما
يزداد بعده عن وظيفته البانية، وتصبح الصنغ الخردة التي هي من
توابع الخط، مستقلة تحيطه بالمزيد من التزيين أو تنفصل عنه لكي
تصبح رقشاً بذاته. وعندما انتقل هذا الخط إلى لوحات منقولة
تلاقى بقوة مع الرقش الهندسي حيث لم تعد تميز أيهما الأصل
وأيهما الأثر. واتسع استعمال الخط العربي التشكيلي خارج فن
العمارة فمشت به ريشة المزهرفين على الخزف، وحفره إزميل
التجارين في الخشب، وطرزته الإبر بأسلاك الذهب والفضة
وخيوط الحرير على الرايات والعصائب والملابس والخيام،
وصممت أصابع صنائع السجاد إطاراً للبسط والسجاد،
وتوزعاً هندسياً في داخل الزخرفة المركزية لها. ولم يقتصر التفنن

وأبدعوا كذلك في استعمال ورقة الغنب، وفروع النخيل، والخيبيات (وهي كل هيئة متخذة من أشكال حبوب النبات) والأقراص والزيتون وسنبلة القمح والفصوص والورد والقرنفل والصنوبر والبلابل وعباد الشمس، والمشبكات أي الخطوط والنوائر المشبابة والخطوط المنكسرة والجدائل والخطوط المتعرجة، أو المنحنية، وما إلى ذلك. ونستطيع أن نقول إن الفنان المسلم لم يغادر هيئة يمكن أن تخطر بالبال كعنصر زخرفي إلا استعمالها بنجاح.

ومن الملاحظ أن الأشياء غير المزخرفة نادرة بحق في الفن الإسلامي، حتى أن الفخار الرخيص غير المزجج (الخالي من الطلاء) يتضمن دائما شيئا من الزخرفة. وقد لاحظ ذلك بحق المستشرق "إنجهاوزن" في بحثه عن الزخرفة الإسلامية. وقد استعملوا الخراف على شكل لآلئ متوازية، أو في صورة أطباق نجمية عند اتساع المساحات، واستعملوا الألوان بنجاح كبير. وكانوا يفضلون الألوان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم؛ كالأخضر والأحمر والأصفر ولون الذهب والفضة. واستخرجوا معاني خاصة للألوان، فقالوا إن السندس هو الأخضر الفاتح، والإسترق عند الرسامين والمزخرفين هو الأزرق، وفضلوا الأحمر على غيره وسموه المرجان لورود اللفظ في القرآن الكريم. ومن هذا القبيل سما اللون الأبيض باللؤلؤ، أما الأحمر فكان قد سُمِّوه بالياقوت، واللفظ قرآني أيضا.

ارتباط الفنانين بالإسلام والقرآن ومعنى ذلك أن الفنانين المسلمين ظلوا في أعمالهم دائما مرتبطين بالإسلام والقرآن، مما أضفى على أعمالهم جمالا وسحرا روحيا لا يخطئه من يتأمل أعمال أولئك الفنانين الموهوبين. ولهذا السبب أيضا استعملوا الكتابة كعنصر زخرفي، وخاصة آي القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الشريفة، بل استعملوا أسماء الرسول ﷺ، وأسماء الخلفاء الأربعة كعناصر زخرفية، وأبدعوا في ذلك أعما إبداع. وهم في الكتابة الزخرفية يفضلون أن يكتبوا بالذهب على أرضية زرقاء داكنة أو إسترق كما يقولون، ومن مصطلحاتهم: "خط الذهب على بحر الاسترق".

ولا ينبغي أن ننسى تأثير الصناعات الشعبية في الفن الإسلامية وزخرفتها. والصناعات الشعبية ليست عملا يدويا تلقائيا، بل هي حرفة فنية متوارثة، ومهارة يدوية توارثها الإنسان ليجعل من كل شيء حوله شيئا نافعا له قيمة إنسانية.

(٥٨) أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المصادر

- (١) وحدة أواصر الفنون، د. عفيف بنسي، مجلة الوحدة، العدد ٣٩، بيروت ١٩٨٧م.
- (٢) فلسفة الجمال، د. أميرة مطر، الطبعة للتفسير العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- (٣) نظرية الفن الإسلامي، د. إسحاق الفاروقي، للسلم للعاصر، العدد ٢٥، الكويت ١٩٨١م.
- (٤) فلسفة الجمال، د. عبد الفتاح الديبدي، الطبعة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- (٥) فلسفة فن التصوير الإسلامي، د. وفاء إبراهيم، الطبعة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- (٦) الفنون والآثار الإسلامية، ريتشارد إنجهاوزن، د. محمد مصطفى رادة، الأملو ١٩٣٥م.



خبره تبشیر طري في كل كرة، مهما كُزّر وأُعيد،
هو الحاضر!

في كل مرة، به من الغفلة إلى الوجد، عبور جديد،
هو الحاضر!

لا أنا ولا الحبيب ولا أحد له بقاء،
هو الحاضر!

إذا ما ضاع الأحياء،
هو الحاضر!

إذا ما تفرق الأخلّاء،
هو الحاضر!

أقرب إليك من حبل الموريد،
هو الحاضر!

فلا تبحث عن دواء عند الطيب،
هو الحاضر!

في السبب والعلة والمقصود،
هو الحاضر!

الفرح الإلهي وشوق الخلود،
هو الحاضر!

المُعِين القوي، السند المتين الشديد،
هو الحاضر!

أوحد من الواحد، واحدٌ أحد، بذاته الأحد الوحيد
هو الحاضر!

هو الحاضر...

◆ نجيب لاضل ◆

(*) من كبار شعراء ومفكرى تركيا. لقب
بـ"سلطان الشعراء"، توفي سنة ١٩٨٣م. الترجمة
عن التركية: عوفى عمر لطفي أوغلو. وإن عتبان
القصيدة "هو الحاضر" ينسب في أصله إفرقيي
الحضور، والوجود، والاستعداد، في آن واحد.



عمالة النظافة

الكائنات المجهرية

❖ د. ولي فارابوغي ❖

لو لم يتم تحويل أحساد موتى الإنسان والحيوان والنباتات التي على سطح الكرة الأرضية وإعادة تدويرها إلى التربة ولولا لعدة سنوات فقط -بَلَّه المدة للديدة-

ل

وبقيت كما هي؛ ماذا كان يحدث؟

حكمة تحلل الأجساد بعد الموت

إذن لافئلاً سطح الأرض بالملحقات والقاذورات، ولما وجد

من أن تتحول إلى مزيل وكأها أجهزة تصفية ونقية، وذلك بتجلّ لاسم الله "القدوس".
تُرى كم يتطلب تنظيف منزلنا الصغير وحاتنا الحدودية من الجهد والمال للحفاظ عليهما نظيفة كل يوم وكل ساعة؟
إن البلديات تقوم بجهود ومصاريف باهظة من أجل تنظيف شوارعنا. فالنظافة أمر صعب، وسدات البيوت يعرفن تمامًا كم



تستغرق عملية التنظيف من الجهد بومياً، وكم هي عملية مرهقة. نحن والبلديات نترك الفضلات التي نجتمعها في أماكن محدّدة فقط، ونحن إنّه لا نخطر على بالنا ماذا يحدث لها هنالك. كل ما نفعله؛ هو أن نتركها ونعود أدراجنا.. هذه الجبال من القمامة، تُرى كيف نُحوّل إلى تراب؟ ومن ينظف لنا ما وتسحاه، ويقدمه لنا من جديد نظيفاً؟ وكيف يحقق ذلك؟ هذا بالإضافة إلى أنه لا يُطلب أيّ أجر مقابل ذلك؟

الكائنات المجهرية ودورها في التنظيف

فمن أجل تقديم إجابة على هذه الأسئلة وأمثاها، يجب التعرف على عالم المُنْتَظِّفَاتِ المجهرية أي الكائنات الدقيقة. إن الكائنات الدقيقة هي كائنات حيّة متناهية الصغر، لا يمكن رؤيتها بالعين

بني البشر مكاناً حتى للسبر عليها، ولُعْطِيت الساحات الزراعية بالكامل بالأنفاض، ولما بقيت تربة للزراعة، ولمكنا من الجوع. في الواقع إن تنظيف الكرة الأرضية من بقايا النباتات والحيوانات وموتى البشر، وإعادتها إلى تربة، وتغذية النباتات وتسميدها بها من جديد، تُعتبر من أهم الأحداث وأخطرها.
إذن كيف تم تحقيق هذه الأعمال الخارقة واستمرارها بدون أي تقصير لحات السنين، أمام أعيننا جميعاً؟

إن ربما صاحب العلم والفسفرة اللامتناهية قد أعدّ الأرض لكل مخلوقاته -وفي مقدمتها الإنسان- لتصبح مكاناً نستطيع أن نعيش عليه... وبناء على ذلك نظم آليات تنظيف هذه المنظومة الكونية؛ حيث تقوم مخلوقات بوظيفة حماية وجه الكرة الأرضية

إن الكائنات المجهرية الدقيقة غير مرغوبة أو محبوبة، لأن بين البشر يذكرونها ويقرّونها دائماً بالأمراض والأوبئة القاتلة التي أحدثتها طوال التاريخ. بينما الواقع؛ أن الغالبية العظمى من الكائنات الحية الدقيقة لا علاقة لها بالآفة بالأمراض. ففي مقابل الآلاف من البكتيريا، فإن قسمًا ضئيلاً جداً من هذه الكائنات المجهرية الدقيقة هي التي تضر الإنسان. فالقسم الذي يسبب المرض للإنسان من هذه الكائنات الدقيقة كلها ربما لا يمثل واحداً في المليار من بين كل هذه المتعضيات المجهرية. ففي حالة مراعاة البشر لقواعد النظافة وتطبيقاتها؛ فإن هذه الكائنات الدقيقة -وحتى التي تحدث الأمراض-، تسهم في الحفاظ على التوازن الطبيعي بدلاً من أن تحدث المرض. وليست الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في الأمراض بل السبب هو الإنسان الذي لا يراعي أو يهتم بالنظافة.

المجردة؛ ولكن بعد اكتشاف الميكروسكوب (المجهر) أمكن التعرف على هذه الأحياء الصغيرة، وتمكّن عالم الإنسانية من اكتساب بعض من المعارف عن تلك المخلوقات الصغيرة جداً خلال ١٥٠ سنة الأخيرة. وقبل هذا التاريخ لم يكن البشر على دراية أو علم بأنهم يتعايشون مع تلك الأحياء الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجردة. إن مجموع الكثافة العددية لهذه المخلوقات التي لا تُرى بالعين المجردة تزيد عن مجموع كثافة البشر والحيوانات التي على وجه الكرة الأرضية بخمس وعشرين مرة. فكان الإنسان يرى أصناف الحيوانات التي تشغل جزءاً قليلاً من الأرض، ولكنه كان غافلاً عن هذا الكم الهائل من الكائنات المجهرية الدقيقة. وكما توجد آلاف الأصناف من الفيلة والحمام والأرانب والخيول والنمل في عالم الحيوانات، فكذلك هناك أنواع كثيرة جداً من الكائنات المجهرية الدقيقة.

إن الله قد منح الكائنات المجهرية دور المفتاح من أجل استمرار الحياة على الأرض. ولدى مقارنتها بالكائنات الحية الأخرى فإنها تحتل المقام الأول في المحافظة على التوازن البيئي بوظيفتها الحيوية.

علارة على ذلك لو سلّمنا أن الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في المرض، فالمضادات الحيوية التي تستخدم في علاج الأمراض هي أيضاً مستخلصة من الكائنات الدقيقة؛ فالقدرة التي أوجدت المرض وضعت الدواء في ثنایا الداء. أما الكائنات المجهرية الدقيقة التي تلعب دوراً مهماً في صناعة العديد من موادنا الغذائية اعتباراً من الزبادي إلى الأجبان والخبز وحتى الخل فهي عالم آخر. ولهذا السبب، فعند تقييم المخلوقات يجب أن نُقيّمها ليس من زاوية واحدة، بل في نطاق الوظائف الكلية الموجودة في النظام البيئي بشكل عام.

إن الله قد منح الكائنات المجهرية دور المفتاح من أجل استمرار الحياة على الأرض. ولدى مقارنتها بالكائنات الحية الأخرى فإنها تحتل المقام الأول في المحافظة على التوازن البيئي بوظيفتها الحيوية،

ويمكن دراسة الكائنات المجهرية الدقيقة تحت أربعة أنواع رئيسية: ١- البكتيريا، ٢- الفيروسات، ٣- الفطريات، ٤- الحيوانات الطفيلية ذات الخلية الواحدة أو المتعددة الخلايا. إن الكائنات المجهرية الدقيقة موجودة في كل مكان؛ فهي تعيش في التربة والماء وعلى النباتات وعلى أجساد الحيوانات. وتعملها الميانات الهوائية من على سطح الأرض إلى الطبقات العليا من الجو ومن قارة إلى أخرى. وفي مملكة واحدة من التراب توجد الملايين من البكتيريا. كما أن الحيوانات وبين البشر يحملون الكثير جداً من الكائنات المجهرية الدقيقة؛ ففي مقابل كل عشرة تريليونات من الخلايا في الإنسان توجد مائة تريليون من الكائنات الدقيقة، بحيث إن كل خلية بشرية يقابلها عشر من الكائنات المجهرية.



رغم حرمانها من مميزات عدة مثل العقل والشعور واللمس والنظام العصبي.

فمن أجل تغذية النباتات وتسميدها تُستخدم المخلفات الحيوانية والزراعية، ولكن هذه المخلفات هي جزيئات عضوية يجب أن تحول وتفتت إلى جزيئات اللاعضوية، أي إلى حالتها الأصلية. وإذا لم يحدث ذلك، فإن جذور النباتات لا تستطيع أن تمتص هذه السُّدُرات. فالكائنات الجهرية هي التي تنفذ عملية تحويل

موتى الحيوانات والنباتات إلى تراب بحيث يمكن للنباتات أن تمتصها.

ولا بد لتحويل كل عنصر كيميائي من عناصر ذوات الروح الميّتة، وتحويلها إلى حالة لاعضوية في التربة، من صنف خاص من الكائنات الجهرية. ولكي يقوم كل عنصر في التربة بتقديم خدمة للنبات، فإن المشاركة بين الكائنات الجهرية المتوعة أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار الحياة. والحقيقة أن هذه العمليات هي أكثر تعقيداً من العمليات التي تجري أثناء الإنتاج في مصنع للسيارات.

الكائنات الجهرية وتوازن الكربون

إن الكائنات الجهرية الدقيقة المختلفة الأنواع مكلفة بوظائف في عملية تحويل كل عنصر من عناصر الفوسفور والحديد والزنك وكل عنصر من العناصر الأخرى إلى أشكال لاعضوية. إن ما يروى على ٨٠ نوعاً من العناصر توجد في الأحياء في حالة مركبات عضوية، فتفتت كل عنصر من هذه العناصر من قبل مجموعة مختلفة من الكائنات الجهرية الدقيقة، وتقدمها لعا إلى الأحياء ليطور تنظيم مُخَيَّر ومدهش.

إن كلا منا محاط من الداخل ومن الخارج بكائنات جهرية دقيقة لا تحصى ولا تُعد، نجعل الحياة تستمر بشكل مشترك وتغير بشكل مطرد ومتوازن معنا ومع بعضها البعض.

وعندما اكتشف سنة ١٨٥٠ أن الكائنات الجهرية الدقيقة



كانت سبباً في أمراض مُهلكة ومعدية، أعلن الإنسان عداوته الضاربة لهذه المخلوقات الدقيقة. وفي الحقيقة لم تكن هذه الكائنات هي المذنبة بل كان الإنسان هو المذنب. فخلال الحرب التي بدأها القادة الظلمة الذين لا يقيمون وزناً أو حقاً للإنسان والإنسانية بسبب أنانيتهم الذاتية، ولعدم اهتمام الكتل العسكرية بالنظافة، والاستخدام المفرط لمصادر ومواد الغذاء في الدول الفقيرة من قبل الدول الأخرى، وعدم إعطاء

العناية الكافية لنظافة البيئة وأجسام البشر... بسبب هذه العوامل كلها أصبحت البشرية بأوبئة الفتاك التي أودت بحياة ثلث سكان القارات طوال التاريخ.

لو استطعنا نحن كعقلاء أن نستوعب الحكمة من خلق هذه الكائنات الحية، ولو بذلنا جهودنا من أجل منع تطور الأوساط المسببة للأوبئة الفتاك، ولو فكرنا أن المضادات الحيوية التي نستعمل لبعض الأمراض التي تظهر من حين لآخر إنما هي من الكائنات الجهرية الدقيقة أيضاً، وأننا إنما نأكل أغذيتنا بدءاً من الخبز حتى الأحياء بواسطة الكائنات الدقيقة التي يُسمى جزء منها الخميرة، والأهم من كل ذلك لو استطعنا أن نُفهم النظر والتفكير في كمون هذه الكائنات الحية التي لا نرى بالعين المجردة تحت هذا التوازن البديع المتكامل... لو فكرنا في ذلك كله لأمكننا أن ندرک الرحمة والشفقة التي أولانا إياها ربنا صاحب القدرة اللاعناية.

إن الكائنات الجهرية الدقيقة التي نجعل وجه هذه الأرض الفاسدة لأمعة ناصعة، والتي تستحق أن تسمى "عائلة النظافة" بما نقوم به من أعمال... يُظهر حكمة الخلق الباهرة ونظام الكون المتكامل العجيب، ونجليات اسم الله "القدوس" التي تشمل كل الوجود. ■

© كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: الصفاي أحمد الطروري.



خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم

د.أ.د. محمد منير يوسف خضر*

١

خصائص المتن القصصي في القرآن الكريم
إن متبوع القصة في الكتاب الحكيم يجد أن ثم قصصا يرد أكثر من مرة في مواضع مختلفة، وآخر يرد ذكره مرة واحدة فقط، وأن النوع الأول يأتي في كل مرة يذكر فيها بشكل مختلف، كما نرى في قصص: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام... وفيها جميعا نجد نواة وظيفية تتكرر، فيما عدا قصص آدم عليه السلام الذي يمثل مقدمة وسببا في وجود هذه النواة. نقرأ في ختام قصة آدم عليه السلام قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا قَوْلًا يَا بَيْنَكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكُذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٨-٣٩). ثم تنوال القصص بعد ذلك: يأتي الهدى من الله، فنبهه التاجون، ويكذب به المالكون. ومن ثم كانت تلك النواة الوظيفية التي اتبعت عليها جميع القصص التالية:

١ - الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢ - الرفض والاستكبار.

٣ - نجاة المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

هذه البنية تقابلنا في كل مرة في القصص المذكور، فتغير الشخصيات، بينما نظل وظائفها ثابتة؛ فنظل الدعوة، ونظل الكذب، ونظل العاقبة... وكأما قصة واحدة تتكرر حلقاتها على الصورة نفسها، كلما كانت فترة نسي فيها الإنسان عداوة الشيطان ووعيده القديم.

القصة القرآنية هي قصة لما أهدفها التي ترجع إلى طبيعة الكتاب الكريم؛ فهو كتاب دعوة، والقصص فيه كذلك وسيلة من وسائل الدعوة. فغالما تأتي

القصة فيه لأهداف شغفها، وغايات تسعى إليها ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الاعراف: ١٧٦)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَلْبِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١).

وقد كثر القول حول القصص القرآني كثرة نوههم بالتهاءة القول حوله، وتسلكت في احتمال تقدم جديد في هذا الصدد؛ ولكن القرآن كتاب منجد لا يخلق على مر الدهر، وهو صالح لكل جيل؛ ومن هنا كانت المحاولة دائما مأجورة، وأقرب الأجر جديد يشعر المرء أنه وصل إليه، أو قدمه، وهل شيء أشرف من حكمة القرآن!

وهنا نتبع خصائص القصص القرآني نبيعا نرى فيه مظنة تقدم الجديد، من حيث إن المنهج الذي ستناوله منهج جديد؛ هو المنهج السرد الذي يبدأ بتقسيم إجرافي للعمل القصصي إلى قسمين هما المعنى والمبنى، أو المتن الحكائي والمبنى الحكائي بتعبير الشكل الرومسي "نوماشيسكي". وحديثنا عن الخصائص هو حديث عن نتائج دراسات طويلة لا نرى داعيا لذكرها، لدلالة المذكور عليها، وتبدأ بالمبنى الحكائي:

يعطي القارئ إحساساً بالمشاركة الحادة في الفعل، إذ إنه يسمع عنه معاصراً وقرعاً كما يقع بالضبط، في لحظة وقوعه نفسها. ولا يفصل بين الفعل وسماعه سوى البرهة التي يستغرقها صوت الروائي في قوله، لذلك يستخدم المشهد اللحظات المشحونة، ويقدم الراوي دائماً ذروة سياق من الأفعال وتأزمها في مشهد.

ويرى «وليام هاندي»، بحق، أن المشهد في العمل السردى يمكن أن يُنظر إليه على أنه مماثل للصورة في الشعر، ومن ثم يضيف أن «كلا من المشهد والصورة تمثلان الخصائص الأساسية لنفسها:

- ١- كلاهما يعرض أكثر مما يوحى.
- ٢- كلاهما بشكل مظهر مفرد لمعنى مضاعف.
- ٣- كلاهما يقصد إلى صياغة الخصوصية أي نسج التجربة.
- ٤- كلاهما موجه أولاً إلى الحس، وليس إلى الفكر المجرد.
- ٥- كلاهما يتخطى المفهوم في احتوائه معنى أكبر مما يستطيع المفهوم أن يصوغه من خلال طبيعته الأصلية.

إنها اللحظات الأكثر توتراً في القصة يعرضها المشهد الحوارى (غالباً) في القصة القرآنية، كما نرى مثلاً في قصص الأنبياء، حيث تأتي دائماً وظيفتها «الدعوة» و«التكذيب» على صورة مشهد حوارى. وهماوظيفتان الأكثر أهمية في القصص القرآنى بوصفه وسيلة دعوة. والوصف يكاد لا يوجد في القصص القرآنى، اللهم إلا في مواضع معدودة، أظهرها ما نراه من وصف لقارون في سورة القصص ﴿فَفَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصص: ٧٩) وكأنه دمية تمثل زينة الحياة الدنيا، تُعرض في صمت ليفتن الناس بها. وكذلك وصف صاحب الجنتين في سورة الكهف حين ضاعت جنتاه ﴿وَأَحِطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَتَقَفَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (الكهف: ٤٢).

أما بالنسبة لعلاقات الترتيب بين زمني القصة والسرد فكثيراً ما تبدأ القصص باستباق، بهيئ نفس المتلقي، ويوجه توقعاته، على نحو ما نجد في قصص آدم عليه السلام حيث هناك الاستباق الإعلاني الذي يتصدر أكثر القصص. وفيه يخبر المولى عز وجل الملائكة بأنه سيخلق بشراً من طين، وما يلي بعد ذلك يترتب بوجه من الوجوه على هذا الاستباق، كما في رفض إبليس السجود لمخلوق طينى. وحين تبدأ قصة آدم عليه السلام في سورة طه باستباق داخلي عن نسيان آدم عليه السلام، فإن السرد يسير من ثم على هذا النحو ليذكر قصة نسيان آدم. ومثل هذا نراه كذلك في قصص سورة

غير أن الهدف الذي تأتي من أجله القصة - من قصص النبي الواحد- يجعلها تختلف في كل مرة في بنيتها الوظيفية؛ فيكون التركيز على وظائف دون غيرها، ويكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة.

خصائص البنية الزمنية في القصص القرآني

وإن مراجعة سريعة للبنية الزمنية في القصص القرآني من خلال ملاحظة الإيقاع الزمني، المتمثل في الحركات السردية الأربع: الخذف، والوقفة الوصفية، وبينهما وسيطان هما: المشهد والأجمل؛ وكذلك من خلال ملاحظة المفارقات الزمنية أو علاقات الترتيب... إن مراجعة سريعة تربينا مدى هيمنة المشهد الحوارى على السرد القصصى القرآنى. ومن خصائص المشهد أننا فيه نجد التحام الزمن القصصى بالزمن السردى، ويصير حاضر السرد هو حاضر الأحداث، فيتحول المتلقي إلى مشاهد يعاين الوقائع بنفسه، يتفاعل معها كأنه واحد من شخصيات المشهد. ويتناوب الخذف، والإيجاز، والمشهد كثيراً؛ الخذف يتخطى أحداثاً لا يحتاجها الموقف القصصى، وهو يتراوح بين أن يكون حذفاً ضمناً، يستدل عليه من ثغرة في التسلسل الزمني، أو انخلال للاستمرارية السردية كما نجد مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فسجد الملائكة كلهم أَسْمِعُونَ ﴿(ص: ٧٢-٧٣) وجُلّ حُلُوف القصص القرآنى من هذا النمط. وفي مواطن كثيرة نستطيع الاستدلال على الخذف من مواضع أخرى في سياقات مختلفة، ومرة واحدة فقط نجد حذفاً محدود المدد، في قوله تعالى من قصص نوح عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ آلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤).

والإيجاز يعرض للأحداث عرضاً سريعاً بجملاً لأهمية ذكرها في السياق ولكن في غير تفصيل، كما في وظيفة الإهلاك والنجاة، في قصص الأنبياء، التي تأتي -غالباً- موجزة؛ فندل من ناحية على هوان المالكين على الله عز وجل، ومن ناحية أخرى على قدرة الله تعالى المطلقة. والمشهد يعرض الأحداث الرئيسية المشكلة للعمود الفقري للنص، وهو يأتي غالباً على هيئة حوار خارجي أو مونولوج داخلي. والمشهد، كما يقول "عبد العالي بو طيب"،

القمr، التي تبدأ جميعها باستباق يحدد موضوع القصة، الذي كان دائما تكذيب قوم نبي من الأنبياء.

والاستباق المختلط في القصص القرآني له خصوصيته التي تتمثل في افتتاحه على المستقبل البعيد المتمثل في القيامة، كما في قصة آدم عليه السلام: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال ربّ لمّ حشرتني أعْمى وقد كُنت بصيرا؟ قال كذلك أتتك أباؤنا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى عليه السلام (طه: ١٢٤-١٢٦). أو كما نرى في قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُوعًا﴾ (الأنبياء: ٩٨-٩٩).

والاسترجاع كذلك يقابلنا في القصص القرآني، ولكن بصورة أقل من الاستباق الذي يبدأ به أكثر القصص؛ فنجد الاسترجاع مثلا مختلطا باستباق العليم في قصة هود عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ عَادًا قَوْمَ هُودٍ﴾ (هود: ٦٠). وهذا الاستباق خاص بالقصة القرآنية؛ وهذا راجع أولا لطبيعة صاحب الخطاب عز وجل عالم الغيب والشهادة؛ ولثاني لطبيعة القصة القرآنية التي هي وسيلة رئيسية من وسائل الدعوة. وربما تركز الاسترجاع في قصص نبي من الأنبياء، كما في قصص لوط عليه السلام من سور القمر والشعراء والحجر والعنكبوت؛ ففي سورة القمر يأتي الاسترجاع للتذكير بأن ما حل بقومه إنما كان جزاء وفاقما لما قايلا به دعوته لهم وإنذاره من تجاهل وتكذيب. ومثل ذلك في سورة الشعراء؛ بينما في سورتي الحجر والعنكبوت، يأتي استرجاع جانب من قصص إبراهيم عليه السلام. وفي قصة موسى والعبد الصالح نجد الاسترجاع أربع مرات متتالية.

ونجد الإشارة إلى أن القصة القرآنية، لوجودها في فضاء النص القرآني، تخضع لزمينتين مختلفتين: الأولى تتعلق بزمن القصة القرآنية، وتعلق الثانية بزمن النص القرآني. زمن القصة يبدأ مع الدخول الفعلي في عالمها، وزمن النص القرآني يهيئ بزمن القصة، ويمتويه. ويمكن أن نعدّه زمنا حاضرا للسرّد، أو زمنا أولا تقاس المعارف الزمنية الكبرى بالنسبة إليه. فالقصة بكاملها تكون استرجاعا أو استباقا حين تعلق بهذا الحاضر الزمني للنص، كما نرى مثلا في قصة أصحاب الحنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا

أَصْحَابَ الْحَنَةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (الفرقان: ١٧). أو في قصص سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا﴾ (القمر: ٩١) وغيره.

خصائص الصيغة السردية في القرآن الكريم

في القصص القرآني يتجلى من صيغ الخطاب صيغة المنقول المباشر التي تخيم على الحكى، وتطبعه من ثم بطابع أمانة النقل للقول السوارد، وهذه الصيغة ترد الوظائف المهمة في القصص. ففي قصص آدم عليه السلام تأتي الوحدة السردية الأولى -وهي إخبار الله تعالى الملائكة بتخلي آدم- دائما في صيغة الخطاب المنقول المباشر، التي تحمل إلينا حوار الله والملائكة في هذا الشأن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). و دائما يأتي الإخبار عن الخلق بضمير المفرد الغائب، و دائما بصيغة واحدة لا تغير ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ في سور (ص: ٧١) و(الحجر: ٢٨) و(البقرة: ٣٠).

يلي هذا الوحدة الثانية "سجود الملائكة وامتناع إبليس" التي تأتي بالصيغة نفسها، و دائما بضمير الجماعة الدال على العظمة، و دائما بالصيغة الواحدة التي لا تغير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ في سور (الإسراء: ٦١) و(البقرة: ٣٤) و(البقرة: ٥٠) و(الإسراء: ٦١) و(البقرة: ٣٤). وتكمل الوحدة بالصيغة ذاتها، لتعرض لظاعة الملائكة، واستكبار إبليس، وامتناعه عن السجود، ومن ثم ذلك الحوار الطويل بينه وبين الله، الذي يأتي في صيغة المنقول المباشر لأهميته الشديدة، لا في قصة آدم فحسب، وإنما -كما قلنا- من قبل- في قصة الحياة بصفة عامة.

وفي قصص الأنبياء، نجد دائما وظيفتي الدعوة والتكذيب تأنيان هذه الصيغة (المنقول المباشر) بعد أن يتم التحضير لها بصيغة الخطاب المسرود. ففي سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩)، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٦٥)، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٧٣)، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٨٥). الصيغة دائما واحدة، والدعوة أيضا واحدة.

والمؤمنين، وإهلاك الكافرين. فنحن نرى قصص الأنبياء في سورة القمر، تبدأ كلها بالرؤية الذاتية؛ تعرض نماذج للأمم كذبت قبل أمة محمد ﷺ. وكيف كان عذاب الله هؤلاء المكذبين في الدنيا قبل الآخرة، فلنحذر أمة محمد أن تكذب هي الأخرى بالنذير، فهي أمة الكالام التي توالى سرد ما حاق بها من عذاب. ولعرض صور العذاب من خلال الرؤية الذاتية أشبه البين في النفس. فالمتكلم هو الفاعل، ولن يكلفه الأمر شيئا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ (الفر: ٩)، وعاد وثمود وقوم لوط، وآل فرعون، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (الفر: ١١)، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (الفر: ١٢)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (الفر: ١٩)، ﴿تَنَزَّاعُ النَّاسُ عَنْهُمْ أَغْوَارٌ لِّئَلَّا يُنْفَعَ لِمَنِ الْأَرْضُ عَنْهُمْ وَحَدِّثْ فَكُنَا عَنْهُمْ صُحُفًا مُنْقَرَعَةً﴾ (الفر: ٢٠)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّخْتَضِرٍ﴾ (الفر: ٣١)، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ بَكْرَةٌ عَبْدَابٍ مُسْتَقَرَّةٍ﴾ (الفر: ٣٨)، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَلْهًا فَآخَذْنَاَهُمْ أَخَذًا عَزِيزًا مُّقْتَدِرًا﴾ (الفر: ٤٢)، ﴿كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (الفر: ٤٣).

يبقى بعد ذلك الرؤية الذاتية الخاطئة، وهي تتخلل القصص القرآني. ومن اسمها فهي تجمع بين الرؤيتين السابقتين، مع غلبة الرؤية الذاتية فيها، وشكلها الأمثل، حيث يأتي قول الحق ﷻ من خلال ضمير العظمة الذي يأتي فاعلا في القصة والسرد على السواء ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ عَسَىٰ أَسْجُدَ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء: ٦١)، وهي قليلة وتأتي غالبا تمهيدا للرؤية الخاطئة أو في أعقابها.

والرؤية الخاطئة الذاتية، وهي على عكس السابقة، تغلب فيها الرؤية الخاطئة، وتتمثل في نقل معنى الكلام لا نصه كما في قوله تعالى في قصص لوط عليه السلام ﴿وَوَصَّيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ﴾ (الشعر: ٦٦).

وتم ملاحظة ثلث إليها، تتمثل في تداخل الرؤيات الذي يجده في بعض المواضع في القصص القرآني، مثل ذلك القسم الخاص ببني إسرائيل في قصص موسى عليه السلام من سورتي (الأعراف: ١٣٨-١٦٨) و(طه: ٨٠-٩٨). ففعل هذا التداخل يأتي بقصد التوجيه النفسي للمتلقى مما يناسب ما يؤديه هذا القسم من عرض لاختلاف بني إسرائيل وفساد طبيعتهم. ■

وهذا أيضا ما نجده في سورة هود وفي سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٠٧)؛ ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٥)؛ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٤١-١٤٣)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٦٠-١٦٢)؛ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٧٨). هذا الاتحاد في الصيغة الكلية للدعوة، بل في كلمات الدعوة، يجعلنا وكأننا أمام نبي واحد، ورسالة واحدة. ولما كذلك، وما يزال قول الله تعالى لدى هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض ﴿فَلَمَّا أَهْبَطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَايَعُوا يَدَايَكَ مَتَىٰ هَٰذَا قَمَنَ نَحْنُ هَٰذَا لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨) يتردد ما دامت السماوات والأرض، وما زال الهدى يأتي من الله، فمن تبعه نجا وسلم.

خصائص الرؤية السردية في القرآن الكريم

من خلال تتبع تقنيات الرؤية السردية في القصص القرآني نعاين هيمنة الرؤية الخاطئة على الحكوي. وفي هذه التقنية يتم تنظيم الحكوي من موقع خارجي، بينما تترك شخصيات السرد تتحدث بأصواتها دون تدخل، مما يعطي انطباعا للمتلقى بصدق ما يتلقى، حين يجد نفسه مشاركا في الحكوي بوصفه مشاهدا حاضرا ومستمعاً لما يجري من حوار. تتجلى هذه الرؤية في وظيفة الدعوة، من قصص الأنبياء، وما يصاحبها من جدل التكذيب، حيث الحاجة إلى معرفة التفاصيل المتلبسة بالدعوة، كعلاقة الرسول بقرمه، ومنهج في دعوتهم، وهدفه منها... وكل هذا يجري أمام عيني المتلقى من خلال الرؤية الخاطئة، ف يرى موضوعية، وعليه من ثم أن يحكم بقله على ما رأى، وأن يجنب كل حكم للهوى، أو للعادة.

ويظهر كذلك، وإن بصورة أقل، تقنية الرؤية الذاتية، التي تلحق دائما بنا الفاعلية الدالة على العظمة، ومن خلالها يتم حكي الأحداث الفاصلة في القصص، تلك التي تحتاج إلى قوة قاهرة متصرفة، مثل عملية الخلق، وإرسال الرسل، وإنجاء

(٦٠) جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية / مصر.

بذرة صغيرة تنشئ شجرة باسقة... من ماء مهين نشأ
هذا الإنسان العظيم... ومن قطرات الماء هدرت البحار
وتصاغت الأمواج... فأياك أن تستهين بالصغير فإنك لا
تدري أي كبير بالقد سيكون!...



كيف تنهار الدول؟

أروخان محمد علي

تعجب السلطان سليمان من هذا الجواب وقهر. أوجد في هذا الجواب معنى سرّي لم يفهمه؟ ولم يجد حلاً سوى الذهاب بنفسه إلى يحيى أفندي في تكبته. وهناك كرر السؤال نفسه وأضاف في حجة يشوبها العتاب: "أرجو منك يا يحيى أن تعيب على سؤالي وأن تعد الموضوع جدياً وعلمي ماذا قصدت من جوابك؟"

قال يحيى أفندي: "أيها السلطان! إذا انتشر الظلم في بلد وشاع فيه الفساد وقال كل من سمع وشاهد هذا الظلم والفساد "ما لي ولهذا؟" وانشغل بنفسه فحسب.. وإذا كان الرعاة هم الذين يفرسون الغنم، وسكت من سمع بهذا وعرف.. وإذا ارتفع صراخ الفقراء واختاجين والمساكين وبكائهم إلى السماء، ولم يسمعه سوى الشجر والمدر... عند ذلك سلوح نهاية الدولة. وفي مثل هذه الحال تفرغ خزينة الدولة، وتفتقر ثقة الشعب واحترامهم للدولة، ويتقلص شعور الطاعة لها، وهكذا يكون الاضمحلال قتراً مكتوباً على الدولة لا مفر منه أبداً. ■"

كان عهد السلطان سليمان القانوني -في رأي معظم المؤرخين- هو العهد الذهبي للدولة العثمانية. فقد اتسعت حدود الدولة وفتحت بلدان وأمصار عديدة في هذا العهد، وعمّ الرخاء والرفاه جميع أنحاء المملكة. ولكن السلطان سليمان كان يعلم من استعراض التاريخ أن كل دولة قوية لا بد أن تضعف وتذبّ فيها عوامل الضعف والانحلال.. إذ لكل أمة أجل.. فهل سيكون هذا هو مصير الدولة العثمانية أيضاً؟ أليس هناك من مهرب من هذا المصير؟ بدأت هذه الأسئلة يشغل فكره عدة أيام يحاول أن يجد لها جواباً.

وعندما طال تفكيره وحيرته قرر طرح هذا السؤال وهذا الموضوع على العالم المشهور "يحيى أفندي" الذي كان في الوقت نفسه أخاه من الرضاعة. لذا كتب له رسالة حشنتها سؤاله. كان هذا العالم يقيم في نكية في منطقة "بشكيتش" في إسطنبول. كتب إليه يقول بعد الليياحة الاعتيادية: "أنتم ملمون بمعرفة العديد من الأسرار، لذا نرجو منكم أن تطلقوا علينا وتعلمونا متى تنهدم الدول؟ وما عاقبة الدولة العثمانية ومصيرها؟"

كان جواب يحيى أفندي جواباً قصيراً ومثيراً في الوقت نفسه. قال في جوابه: "ما لي ولهذا أيها السلطان؟ ما لي أنا؟"

(٦) كاتب وباحث تركي.

يا خميرة الفضيلة، يا غمامة طهرت سبوح في الفضاء
هيا اهبطي علينا خيراً وجمالاً وصدقاً، فالدنيا إليك
ظائمة، فقد آن وأنتك وأظل زمانك.

بين المشاعر والشعائر

سلام الإيمان

د. سحر بوبنار *

ق

اسم هذا الدين نفسه، فكله الإسلام، وهي اسم الرسالة الموحى به من الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) مشتق من المادة اللغوية "سلم" التي ترد بمعان ثلاث: أولاً، معنى الخلوص والتعري من الآفات الظاهرة أو الباطنة؛ وثانياً، معنى الصلح والأمان؛ وثالثاً، معنى الطاعة والإذعان.

فترى أن أحد معاني المادة اللغوية للإسلام هو الصلح والأمان، بل إن معاجم اللغة ومصادرها تبين أن كلمة "السلام" قد ترد بمعنى الإسلام. وإذا علمنا وثوق صلة الاسم في اللغة بالمعنى بأن أن شعائر الإسلام نفسه، وعنوانه الذي يدل عليه، هو الصلح والأمان الذي جاءت به الرسالة ودعت إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلًّا﴾ (البقرة: ٢٠٨).

ويتأكد ذلك الارتباط مع كل عناصر عقيدة المسلم؛ فمن أسماء الله تبارك وتعالى "السلام" ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ (الحشر: ٢٣)؛ والجنة التي وعد بها المؤمنون، والتي يتظلعون إليها هي "دار السلام" ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الأعام: ١٢٧)؛ ونجاة المسلمين في الدنيا والآخرة "السلام"

فهم مؤسسه على الإيمان هي قيم مطلقة في نفس من يؤمن بها كيفما كان ذلك الإيمان، وعن أي مصدر صدر. والقيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام مطلقة في وجدان من يؤمن به صلاحية وفاعلية، سواء انصلت بأحد جوانب الحياة الإنسانية كالجانب النفسي أو الأسري أو الاجتماعي أو الدولي، أو كانت مبادئ وقيماً عامة تشمل هذه المستويات كلها كمبدأ السلام.

من هنا نرى أهمية فهم المدخل الإسلامي لفكرة السلام من خلال أصالة المبدأ في التصور الإسلامي، كما في تعليقات الإيمان ومستويات السلام الذي يحققه في حياة الفرد والجماعة، استمداداً من مصدر ذلك الإيمان المطلق، بدءاً من مستوى الشعائر وصولاً إلى منزلة الشعائر، فضلاً عن اكتنافه مشاعر الإنسان المؤمن الذي تحصل له السكينة والأمان، وينعم في جوائحه بمعاني السلام الدائم المتجدد.

السلام شعاراً للإسلام

إن الأصرة الوثقى للسلام بالإسلام تبدأ من مستوى الشعائر، أي

﴿نَحْبِثُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (البراهيم: ٢٣)؛ وكتاب الله تعالى نزل في ليلة كلها سلام، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ٥).

وقد كتب بعض مفكرى المسلمين في هذا العصر عن كلمة "السلام" في حياة المسلم وبيئتها أنها أحد أكثر ما يتردد من كلمات العالم في كل يوم بفضل رسالة الإسلام، وكونها جزءاً من عبادة المسلم (الصلاة، الحج) وعلاقته بمن حوله من الناس (التحية).. أليس السلام إذن هو شعار الإسلام الأول؟!

السلام النفسي في الإسلام

يرى كثير من علماء الاجتماع والسياسة أن الإنسان هو منطلق العالم نحو السلام، وأن سلام العالم إنما يبدأ من النفس الإنسانية؛ فإذا عاشت هذه النفس سلاماً داخلها، أثمر ذلك سيادة معاني السلام في حياة الجماعة والدولة والإنسانية جمعاء، وإذا افتقدته عز على العالم أن يدرك هذه الغاية أو يلمس آثارها.

من هنا يدرك كيف أن كثيراً من المجتمعات ماضياً وحاضراً فقدت معاني السلام في حياتها، رغم كل المبادئ المعلنة والقوانين المسطرة والشعارات المرفوعة؛ إذ تظل هذه المعاني بعيدة في غياب شروط السلام الداخلي للإنسان وأسبابه. ولهذا ينطلق التصور الإسلامي للسلام الشامل من السلام النفسي؛ فالإنسان الحائر المضطرب، الفاقد لمعاني السكينة والاطمئنان الروحي هو أبعد ما يكون عن إقامة ميادى السلام في الحياة.

ويقوم مفهوم السلام النفسي في الإسلام على جملة مبادئ عقديّة وشعائرية وتعبديّة وقيم أخلاقية، جاءت بها الرسالة، تبلغ في مجموعها النفس الإنسانية منزلة الأمن والسلام، وتعصمها من الاضطراب والتناقض، وذلك من خلال منظومة قيم الإسلام وأحكامه عامة، ومقتضيات العقيدة والعبادة خاصة.

العقيدة مصدراً للسلام

إن الأساس الذي تقوم عليه عقيدة الإسلام وشريعته وسائر أحكامه هو الإيمان بالله وما يترتب عنه من التوكل عليه والود به والإتابة إليه والاعتصام بحبله والتسليم له والأنس به ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) بكل ما يحمله الإيمان من معاني التسليم لله بقضائه والالتقاد لقرره والاعتقاد أن أثرهما على مسار الحياة. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات ويتخلص من ضيق الحوادث، مستنداً إلى قوة إيمانه فيحرق متفرجاً على سفينة الحياة

في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام. وهو أمر يدفع الإنسان إلى العمل والسعي والاجتهاد موقناً بأن قدر الله ماض وأمره نافذ؛ فلا يأسى على ما فاتة فتصيح النفس لها لليأس، ولا يفرح بما أتاه فتشتط بعيداً عن دوام التذكر أن ما بها من نعمة فمن الله، وأن ما أعطاها لم يكن ليصيبها وما أصابها لم يكن ليخطئها وأن لها رباً قادراً متصرفاً، بيده مفاتيح الغيب وأسرار المستقبل، والنفع والضرر، والعطاء والمنع، ومنه التوفيق والسداد. ومن فطرة الإنسان المقترنة بخاصية الضعف البشري أنه دائم

الحاجة إلى قوة أكبر منه، يشعر في وجودها بالأمان من قوى الكون التي لا طاقة له بها وصروف المستقبل التي يذخرها، وهي حاجة عبر الإنسان عنها على امتداد تاريخ الإنسانية في كافة الحضارات والثقافات. فإذا كان الإيمان بالله أساس العقيدة وجوهر التوحيد ومبتدأ الإيمان وأهم مفاهيم الإسلام وأسمى أحكامه، أمر الإنسان المسلم في حياته من نقاد إلى مقتضيات هذه العقيدة، مدركاً أن له رباً قوياً قادراً وأن هذا الإله سميع بصير، قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). وحسب هذه الصلة بين العبد وربّه، أنها تهب نفس المخطئ الرجاء والأمل، وتخفّر على الآوبة والتوبة الدائميتين، استجابة لنداء الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). وفي التوكل على الله راحة للنفس من عبء ثقيل تحمله النفوس التي لا تهتدي إلى توحيد الله.

أما المؤمن فيتحصن أمام كل مصيبة مستنداً إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل، وأما غيره فينوء بعبء الحياة الدنيا همومها وهواجسها واحتمالاتها، لذلك تظل الأسئلة الوجودية الكبرى التي تلجّ على الإنسان في أي زمان ومكان.. أسئلة المبتدأ والمأل، والموجود، والغاية من الحياة ومصير الكون والإنسان.. تظلّ حاضرة ملحة، ما لم يجد لها أجوبة متكاملة، يقلعها الإسلام، ويتبناها في نفس المسلم الإيمان، لتحقق بذلك طمأنينة النفس التي هي أول درجات السلام النفسي الكامل.

شعائر العبادة مصدراً للسلام

لا شك أن الجو النفسي الآمن الذي تشيعه العقيدة في قلب الإنسان يحتاج إلى دوام واستمرار لقاء تلك المعاني ورسوخها. وهذه وظيفة ضمن وظائف أخرى للعبادة في حياة الإنسان المسلم. وإذا نحن تأملنا الشعائر التعبديّة في الإسلام كلها وجدنا أن الحيط الناطق بينها

أما تُدَحِل الإنسان بحالاً للأمن النفسي من حلال علاقته بخالفه، ليعيش معاني سلام داخلي دائم ومتجدد دوام العادة في حياته. فالصلوات مُحطَّات يومية في خضمِّ الحياة للاتصال بالله، وهو أمر لا يمنح المصلّي شعوراً بالأمان من مستجدات الأيام لارتباطه بالخالق المدير فحسب، بل يزرّده بقوة نفسية - لمواجهة أعباء الحياة وتحمل مشاقها - لا وجود لها إلا في العادة. وفي الخطاب القرآني توجيه إلى هذا المعنى الذي جعل الفلاح والخير في الحياة الدنيا والآخرة معاً مقصداً وغاية للصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحج: ٨٨)، وقوله سبحانه عن تلبية نداء صلاة الجمعة الأسبوعي ﴿إِذَا تَوَدَّى لِنَصَلَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة: ٩)، من ما يجعلها في النهاية عنصر توجيه وترشيد للسالك الإنسان باتجاه الفضيلة ومانعاً من الاعتداء على الحقوق ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النكاح: ٥٥).

ومن أراد أن يفهم البعد النفسي العميق للعبادة في حياة الإنسان، فليقرأ ما كتبه أولئك الذين حرّموا هذه النعمة حيناً من الدهر قبل إسلامهم، وما كان لها من أثر الغيث والرحمة على نفوسهم الظمأى بعد أن عرفوا الإسلام، وأثرها البالغ في إحساسهم بالسكينة والسلام.

وإذا كانت الصلاة محطة يومية وأسبوعية متواصلة، فقد أقام الإسلام محطة سنوية عامة يدخل فيها الإنسان والجموع المسلمة دورة تكوين في قيم السلام النفسي والجماعي، هي عبادة الصيام، من خلال تقوية النفس وترويضها على التحكم في التوازع والأهواء ولجم الجوارح كلها، حتى عما يباح لها في غير رمضان من أصناف النعم والمتع، فستُؤمُّ بذلك نفس الصائم حتى يغلو عامل رحمة وسلام لنفسه وغيره. ثم إن شهر رمضان موسم للسلام الاجتماعي، يعيش فيه الناس معاني الصبر لا على شهيق البطن والفرج وحدها، بل على أذى الناس وجهلهم، فلا يغضب الصائم ولا يبرف ولا يجهل وإن بادره غيره بالاستشارة أو الأذى، لأنه يعيش موسم ترويض على معاني السلام؛ وفي الحديث القدسي "الصيام حُتَّةٌ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يبرف ولا يصخب؛ فإن سابه أحد أو قاتله فليقلل إلى امرئٍ صائم" (متفق عليه).

ثم يبلغ المسلم قمة العيش في ظلال السلام خلال الامتحان الذي فرض الإسلام اجتيازها مرة واحدة على الأقل في حياة المسلم، نتوجها لخطوات التربية اليومية (الصلاة) وحوارات التكوين

السنوية (الصيام)، حيث يعيش المؤمن رحلة سلام حقيقية وشاملة في الحج، يتدرب خلالها على كافة المبادئ والقيم التي جاءت بها الرسالة، ومنها مبدأ "السلام"؛ فعندما يحرم الحاج يتحول بمقتضى هذا الإحرام إلى عنصر طمأنينة وسلام في الأرض، للإنسان والحيوان والنبات، فلا يؤدي غيره ولا يسلك ما يؤدي به إلى فحش أو خصومة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (بقرة: ١٩٧)، ولا يصطاد حيواناً ولا يأكله إذا صيد له: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْعِبَادَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (آل عمران: ٩٤)، ولا يقطع شجراً، ولا يؤدي كائناً، وإنه لمن قبيل الاتساق مع جو هذه الرحلة التعبدية، أن يكون من دعاء الحاج عند رؤية الكعبة المشرفة قوله: "اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحيتاً ربنا بالسلام" (رواه مسلم).

وفي الحج مبدأ آخر لا يقل أهمية في إشاعة معاني السلام في النفس والجماعة، وهو مبدأ المساواة بين الناس واتخاذها شعاراً معلناً ومستمطاً ظاهراً، إذ يلبس الحرم لباساً لا يميزه عن غيره ليتوحد الجميع في مظهر واحد، وهذا أحد المروحين من المسيحيين يتحدث عن هذه القيمة في عبادة الحج فيقول: "ولا يزال الحج على كثر العصور نظاماً لا يبدى في تشديد عرى التفاهم الإسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين، وبفضله ينسئ لكل مسلم أن يكون رحالة، مرة على الأقل في حياته، وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً أخوياً، ويوحّد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض. وبفضل هذا النظام يتيسر للزوّج والبربر، والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أم فقراء، عظاماً أم صغاراً، أن يتألفوا لغة وإيماناً وعقيدة".^(١)

هذه أمثلة أولية مختصرة لجوانب السلام النفسي والاجتماعي من المشاعر الإيمانية إلى الشعائر العبادية في الإسلام، تمكّن من القول بكلمة: إن الإسلام يجعل من الأمن الروحي والنفسي للإنسان، عبر إشاعة معاني الطمأنينة والسلام بين جوانبه، المدخل إلى سلام الجماعة في دوائر الأسرة فالجتمعة والأمة ثم الإنسانية كلها، لأن الإنسان مادة ذلك كله، وركن بنائه الركين. ■

(١) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وحدة / المغرب.

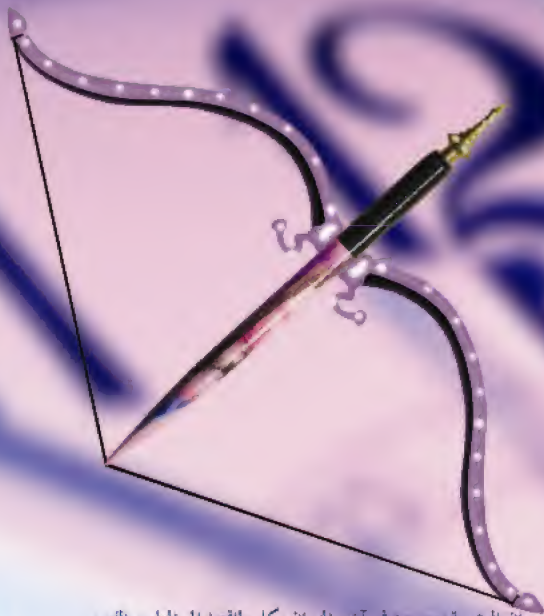
المواضيع

(٢) تاريخ العرب لغيليب حنّ، ١٩٨٧/١.

حراء

مجلد ثقافت و ادب

www.hiramagazine.com



إن البشرية سترجه في آخر الزمان بكل طاقاتها إلى العلم والفن،
فستمد كل قوتها من العلم، ويملك العلم مرة أخرى الحكم والقوة،
وتلعب الفصاحة والبلاغة دوراً جوهرياً في قبول الجمهور للعلم.
ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.

